

قصص قصيرة





الضحى العالى

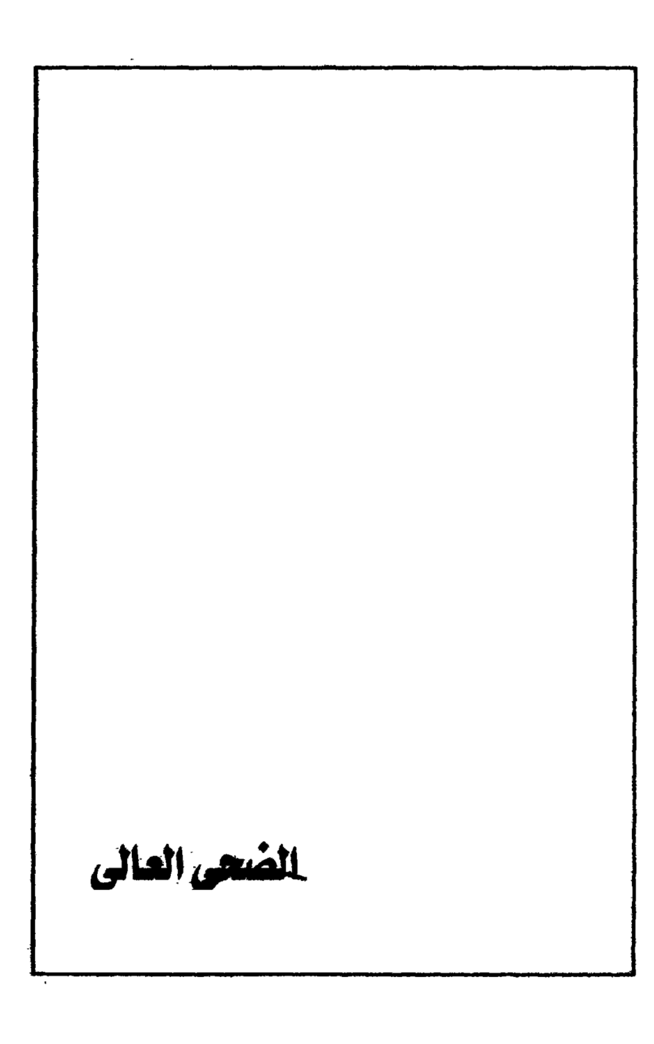


الهيئة المصرية العامة للكتاب

إهـــــــداء2006

ورثة الكيميائي/ محمد فاروق الفران

الإسكندرية


المضحى العالى

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى: شموخ
التقنية: تمثال من الخشب

محمد سيد توفيق (١٩٤١ -)

فنان متعدد المواهب.. مثّال متميز.. رسام.. رسام ملون. ما أجمل الخيال الذى يتوارى فى أبيات الشعر حين «يتجسد» لعيوننا ونلمسه بأيدينا.. ما أروع الموسيقى.. حين نمر عليها بأناملنا نستشعر إيقاعها ونتأمل تناغمها.

منحوتات محمد سيد توفيق قصائد شعرية ومقطوعات موسيقية. تتمثل لنا كائنات صغيرة أنيقة.. تنضح بالحيوية.. هذا ما نراه فى واحدة من أعماله المنشورة على الغلاف.

محمود الهندى

الضحى العالى

يوسف أبو ريه



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الإبداعية)

الضحى العالى

يوسف أبو ريه

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

فى البـــدء كان النهر يمشى وحيدا فى الارض السوداء ، وماؤه حين كان لا يجد النبت الذى يشربه يعود الى النبع ، او يندفق فى بحر الملح . وفى مساء ليلة غاب عنها القمـــر حدث النهـــر نفسه قال : اخلق من طينى قرية اسكن اليها ، يكون لى منها ابنـــاء وحفـــدة ، يخضرون جدب الارض التى حولى .

وفوق تل يطل على حافة النهـــر ، تخلقت دار من طين ، عمـــرها رجـــل قد من طمى اخضر ، وأمراة نبتت ذات صبح من تحت ابطه الخشن . جاب الرجـــل المكشوف السوءة جهة المشرق وجهة المغرب ، وسمى النهر باسمه ، وعرف اسم الشجر والطير والحيوان ، وقال : ها قد عرفت كل الاسماء ، فلاسم قريتى التى اسكنها .

وخط باصبعه على التراب الناعم : « الجزيرة البيضاء » وقال لنفسه : ذلك انى سادهن دارى بجير ابيض ، كذلك سيدهن ابنائى وحفدتى دورهم بالجير الابيض .

خبز الصغار

البنت التى جلست بجوار الفرن
شيدت بيتها بحجرين كبيرين وخشبة
عريضة ، انامت الرحى وقالت : هى
الفرن الذى سأرمى فيه أرغفتى .

جلبت الماء من الطلمبة القريبة ،
عجنت به الطين الذى سوت منه أرغفة
تقافزت بين يديها فى الصفيحة الصدئة ،
والولد أعطاها ورقتين قال : اشترى لنا
غداء من السوق حتى أعود من
الشغل .

وذهب الى هناك ، تحت الشجرة
التى تغطى سطح الدار ، وتنام أغصانها
على السور المطل على الشارع الكبير .

أمسك العصا وقال للأولاد : انحنوا على شجر القطن ، واياكم أن اعثر على « لطعة » تغفلها عيونكم .

وقال لنفسه : هكذا كان الخولى يقول للأنفار ، لكن المهندس الذى جاءه راكبا فرسا ، ضربه فى وجهه لما عثر على الدود يأكل الورقة .

جاءت البنت اليهم وقالت : ما رايكم لو خبزنا بعجين حقيقى .

رد الولد الواقف : أنا أحضر الدقيق .

ورد الولد المنحنى : وأنا أحضر الكبريت .

لما دخل من الباب المفتوح على الحوش ، رأى أمه جالسة تغنى ، ظهرها الى الباب ، ووجها الى الوابور تنظف ثمار الكوسة .

غافلها وفتح باب الحجرة المقابلة ، المعتمة ، نافذتها مسدول عليها الخيش ، وبقعة نور ضئيلة تسقط من منور السطح على كيس الذرة ، و « قفة » الدقيق كانت فى الركن مفرودا عليها جلباب أبيه القديم ، رفعه بحذر ، ومد قبضته يملأها ليفرغها فى حجره .

حين مرق من ضلفتى الباب واجهته أمه عند الزير تملأ الكوز ، سألته عما كان يفعل بالحجرة قال : كنت أريد لقمة من المشنة .

واسرع الى الحوش حيث وجدهم يقيمون الفـــرن بأحجـــار صـــغيرة ، يلصقونها بطين قطع من بين عنق الطلمبة .

والبنت كانت تجمع أعواد الحطب والقش من حظيرة الدجاج ، تصفه بجانب الجدار ، ثم جلست تخلط الدقيق بالماء فى صفيحة قديمة ، تضربه بكفها الصغير حتى صارت له فقاقيع تبقبق طاردة الهواء المحتشد ، كانت تود لو تسمع له ضربات تهز أركان الدار ، كعجين امها الذى تنكفـــأ عليه من أول الليـــل حتى مطلع الفجر ، وقالت البنت لنفسها : العجـــين لن يخمـــر ، ولن ينتفخ حتى يندفق على جوانب الصفيحة لأنى لم اسم عليه .

حركت شفتيها باسم الله الرحمن الرحيم ، ثم قـــرأت الفاتحة التى حفظتها عن أبيها .

صنع الاولاد للفـــرن فتحة كبيرة يدخلون منها النار ، وفتحات صغيرة ضيقة يخرج منها الدخان ، فى النهـــاية مددوا الصفيحة الصدئة على سطح البنـــاء ، ودغمـــوا منافذها بالطين والحصى .

وفكروا : فى رمضان سنأتى بالكوز المثقوب من اسفله ، لنرش عليه العجينـــة خيوطا رفيعة لتكون الكنـــافة ، أو نوزع العجينة قطعا صغيرة لتكون القطايف .

مسح الولد خيط المخاط الذى سال على شـــفتيه ، وهيـــأ عود الثقاب الذى يحكه بجانب العلبة فنخرج النار ،

لتنتشر قوية فى القش وأعواد الحطب ، لما دسها فى الفتحة الكبيرة اختنق اللهب وخرج منه الدخان كثيفا يسيل له دمع العين .

قال الولد : دعنى أنفخها .

جمع الهواء و شدقيه . ودفعه بقوة على الجذوات الخابية ، فاستيقظ لهيبها منتشرا فى الوقيد ، قربت البنت الصفيحة ، براحتها رفعت قطعة العجين ؛ أرادت أن تهزها فى الهواء ، كما تفعل الخبازة لكنها اندلقت مختلطة بالتراب .

نثرت الدقيق على الخشبة العريضة ، ورمت القطعة الطرية ، ثم راحت تدفعها ما بين كفيها تحلق فى الهواء لتسقط على الخشبة مفروشة مستديرة ، رمتها على الفرن . ورفعت خصلة الشعر التى سقطت على عينها ؛ كانوا الوجوه يترقبون ؛ وانتظروا حتى انتفخت قطعة العجين . وانقلب لونها حتى صارت محمرة .

قالوا : ها هى تسوى كخبز حقيقى ، سنصنع لكل منا رغيفا ، ندع الفرن نجبر عليه كل يوم أرغفة نأكلها . ونوزع منها على أولاد الجيران .

انتفضوا — فجأة — على الصوت الذى خرج من النافذة : يا أولاد الأبالسة .. هكذا تشعلون النار لتحرق الدار .. انتظروا حتى أذبحكم جميعا .

جمع الولد الرغيف فى كمــه ، وبقفزة كان يجـرى امامهم ، والدجاج من حولهم يجرى فزعا ، دخلوا الحظيرة ، ومن خصاص الباب كانوا يرقبون القدم الكبيرة التى ســوت البنــاء الصغير بالارض ، واليـــد تطوح الصفيحة على سطح الدار .

جلس الولد على الارض ليقسم الرغيف ، أعطى لكل واحــد لقمــة ، مضـــوا يلوكونها بتلذذ ، قالت البنت : والله كأننا غمسناه بعسل النحل .

طفـــــل الطين

الشجرة ذات الظل فردت أوراقهـــا الخضراء فوق البقرة التى تلف فى الساقية، والولد الذى يرقد تحت الجذع ، يخطط فى التراب ، قسمه أحواضا وجعـــــل وسط الاحـــواض قنـــاة واســـعة تنتهى بدائرة هى التى سيدلق فيهـــا ماء الكوز من الترعة الكبـــيرة ، امتلأت الدائرة ، وتدفق المـــاء فى القنـــــاة المنحـــدرة ، وتوزعت بين الخطوط الكثيرة يشربهـــــا التراب بعطش حقيقى .

.. وعرف الولد أنه لا التراب ولا الماء يثمران الزهرة الخضراء ، لأنه لم يضع البذرة ، فجمع الأرض التى أعـــــدها

كتلة من الطين ، عجنها بالماء ، وصاح فى البقرة لتدفع الماء لأبيه هناك ، أعلى الحقل ولأنها لا تخضع لصياحه ، ضربها بالفرقلة ضربتين على كفلها .

« هكذا تسرع فيجرى الماء لأبى يروى أرض القطن ... » .

قال لنفسه حين عاد لعجن الطين وأكد :
« يباع القطن فنخلع ملابسنا لنرتدى الجديدة ، ونقلع النعال المفتقة لنلبس الجديدة » .

خلق من الطينة جاموسة بأذنين وقرنين ، وأربعة سيقان بحوافر جاء بين فخذيها الخلفيتين ولصق كرة بأربعة بروزات ،و عرضها للشمس ، قال : هذا ضرعها ، لكنه لن يدر اللبن .. أمى تحلب جاموستنا الكبيرة ، أنال قطعة القشدة على الرغيف حين تضر بها فى الاناء الواسع ، ثم تذهب بها الى السوق كل خميس ... » .

ضغط الطينة بأصابع يده ، فصارت الجاموسة بلا شكل ...

ردد الموال : « منين أجيب ناس لمعناة الكلام يتلوه ».. وقص ــ بالصوت المنغم ــ قصة الولد الذى قاتل الاجنبى والظالم ، فكانت الطينة فى يده على هيئة خفير بلبدة ، وشارب طويل ، على كتفه علق البارود ، وعرضه للشمس ، لكن الخفير سقط على وجهه فطمسه

التراب ، عجن الطينة فى يده ، ودار خلف البقـرة ثلاث دورات يحثها ويضربها .

أقام بالطين جدارا ، ألصق به جدرانا ثلاثة ، وجعل بها فتحتين صغيرتين ، وفتحة كبيرة ، قال لنفسه : هذه هى الغرفة الأولى ، سأقيم بيتا بأربع غرف وردهة وزريبة ومرحاض ، وسأحفر أمام بابه قناة تجرى فيها المياه ، واغرس على حافتها الغصن فيكون الشجرة الظليلة ، التى تقعد تحتها أمى والجارات .

حين انتهى من البناء ، سوى الطينة بيده ، فكانت براس وساقين ومن جنبيها صنع ساعدين فى الخصرين .

بالعصا الرفيعة شق فى الوجه عينين ، وثغرا باسما بغمازتين وستر الرأس بالقماشة الملونة .

هذه هى العروسة صاحبة الدار التى سترقد على السرير فى غرفة النوم ، وفى جانب من الغرفة وضع الحجر الذى فرشه بباقى القماش .

« ولكن العروسة لابد لها من عريس ... » .

أكد لنفسه وبقطعة أخرى من الطين ، صنع جسدا براس كبير به شارب ممتد وحاجبان كثيفان ، ونقش فى الصدر ليصنع الشعر الغزير .

أنام العروسة على الحجر .

شعر بالدم الهادىء ينساب ما بين الجلد والعظم .

فتمنى لو عاد ضئيلا كنملة ، ودخل من الباب الضيق للبيت ، ودخل الغرفة ليتمدد الى جوارها على الحجـــــر الوثير .

لكنه فى النهاية ، أدخل الرجـــل الذي صنعه ، مدده على طرف الحجر ، وراح يتأملها بحب ، وعزم على أن يدع البيت والعريسين لضوء الشمس ، ويحرسهما من أقـــدام الكبار والصغار .

الفـــــارس

لمـــا طلب أبوه ذلك منه ، شــعر نجاة بالرجولة تملأ كيانه ، وعبر الردهة ، تعـــثر فى الحطب ، لكنــه لم يقـــع كما لا ينبغى للرجـــل أن يقـــع ، وهش الدجاج المتكاثر عند باب الزريبــــة ، فتح هيـــكل البـــاب المرقع بالخشـــب القـــديم ، وحين وقعت عينـــه على الحمـــارة فى مذودها ، شمر جلبـــابه حتى لا يتســـخ بالروث الذى تكثفت رائحته الخصبة فى أنفـــه ، ضربها على كفلهـــا ، وانحنى يفك القيـــد ، لكنهـــا رفست رجلها بقوة فى الهواء ، وما كان من الممكن أن يسكت أو يستغيث ، زعق

بخشونة لم تفت على الحمارة تكلفها ، فلم تخضع الا بالعصا التى انهالت على جلدها ، انتهز الاستكانة المضمرة ، وفك القيد الذى علاه الوسخ .

عند الباب ... هيأ أبوه الغبيط على ظهرها ، وعقد راسه بالمنديل الكبير وقاية من عين الشمس التى تضرب رؤوس الصغار .

أوصاه بالسير تحت ظل الشجر ، ودس فى جيبه ربطة القروش .

قال : سنجده ضخما بحجم خالك الا أن وجه الآخر بشارب يحوط شدقيه ، سيسألك عن اسمك ، فاذكر له اسمى ، وان طلب علامة ، أخبره أنك كنت معى أول أمس على مقهى المدينة ، وان لم يكن بالدار فاسأل عنه زوجه ، ولا تعط القروش الا للرجل .. فان أعطاك الشىء ، فاحرص عليه كما تحرص على نفسك .. وهذا القرش لك لتشترى حلاوة من بقال قريتهم .

لما استوى أمامه الطريق ، أدخل قدميه فى فتحتى الغبيط ، ضرب الحمارة على رقبتها ضربتين ، فانتفضت لتلقيه عن ظهرها ، غير أن الولد تشبث بها وأحس من لحظتها أن الحمارة تضمر له الشر .

لما وصل (الهدار) قال لنفسه : ها هنا تنتهى ترعتنا ، يتقاطع معها المصرف الموازى لسكة الحديد ويتفرع طريقان ، الاول ممتد الى المدينة ، والآخر

يصعد الى بلدة الرجل ، بين الطريقين يتكاثر الشـــــوك الشيطانى الذى تسكنه الفئران . دخل بداية الطــريق ، فتجمع الغبـــار حول حوافر الحمارة ، وانتشر حتى وصل وجهـــه . عن يمينه المصرف يغطيه الريم ، والطـــريق الضيق بباطن شريط القطـــار ، وعن شماله كانت أرض (الاصــــلاح) فتذكر أن أباه كان يمتلك حمـــارة ركوب كانوا يدعونها « حمارة الاصـــــلاح » رآها وهى تموت لمـــا أكلت من ورق القطن المسموم ، ورآها وهى نافقـــة فى ماء المصرف ، فبكى عليها .

رأى التراب مكوما على حواف الارض ، قال : هنا ترقد الثعابين والحشرات القاتلة .

ولمـــا قفزت الحمارة فجأة لتعبر القناة المحفـــــورة فى الجسر ، لعن — فى سره — اهمال الفلاحين .. هكذا يفعل أبوه حين يسخر من زرع جيرانه .

على البعد البعيــد رأى الدخان يتصاعد من التراب كأفاع أهلكها العطش ، فى هذه اللحظة ، شـــعر ان عين الشمس تقصـــده هو بالذات ، فقد تسلطت على قفـــاه وظهره ، حتى طفح جسمه كل العرق .

على طريق القطار رأى نقطة سوداء تكبر كالمارد ، وسمع صفيرا ، عرف أن القادم قطار الظهيرة ، وهـــو أحمـــر ، حين يمر يكون وقت الغـــداء ، فتخرج الانفار من خطوط القطن ، تفرغ الديدان فى النـــار ، وتجتمـــع

فى ظل الصفصافة حول مناديل الخبز والحسن والخيـــار الملح .

اهتزت الارض لعجلات القطار ، والمسافرون كانوا فى النوافذ وعلى الابواب ، اشار لهم بيده ، وقال لنفسه : انهم يستعدون للنزول فى محطة المدينة ، ليركب غيرهم .

كثيرا ما فكر فى السفر البعيـــد ، فى الخطوط بين الأنفـــار ، أو حين يجمع ورق الاذرة الاخضر للماشـــية يرى نفسه فى الحلة الانيقـــة ، ويرى وجوها لا يعـــرفها الا أنها نظيفة بملامح متناسقة ، تبتسم له ، وتقـــول : ها هو الولد الاعجوبة . فى السفر الى المدن ذات الشوارع المسفلتة والبيوت العالية ، لابد من المعجـــزة ، ما هى ؟ لا يدرى ، قد تكون القـــدرة على ضرب فتيـــة حى بكامله ، وتكون الجميلة بالشرفة فتشـــير اليه : ارسلوا فى طلب هذا البطل .

عاد الطريق للصمت الذى لا يحـــركه غير حوافر دابته ، تأملها حين أرخت أذنيها ، وشـــعر بأنه بعيـــد ، وتمنى لو يعود .

لمـــا اقترب صف أشـــجار (العبـــل) الذى يقطع المصرف ليعبر المزلقان ، عرف أنه سيجد هناك « عكاشة » بسترته الثقيلة الخضراء ، لا يقوم الا ليفتح البـــوابة أو يغلقها .

واكد لنفسه : سألقى عليه السلام ، تماما كما يفعل

الرجال ، ها هو العم « عكاشة » فوق المصطبة ، وتحت الظل يجرى من تحته ماء رائق لترعة لا يعرف اسمها . كم من حكايات سمعها عنه ، هو الذى تسعى اليه عفاريت المقتولين بالقطار ، الفها كما ألف كلابه الراقدة تلك ، رأى وابور الماء فتأكد له الطريق الواسع الممتد الى القرية المنشودة . هذا الطريق ينام ترابه تحت رشاش الماء .

قبل أن يدخل بين الدور رأى الصنابير يغتسل بمائها صبية كشفوا عن عوراتهم ، قال : القرية تنعم بالماء ، بينما بناتنا يذهبن بالحمير ليملأن من مكان بعيد ، ورأى رجالا يرقدون على الابواب ، بالقرب منهم ، ترقد الخراف والدجاج والجاموس ، ورأى شوارع ضيقة ، ومنازل بطابقين ، وبقالا فى دكانه يطرد الذباب ، فتذكر القرش ، بعد أن حصل على الحلاوة ألقاها دفعة فى فمه ، زامت عليه الكلاب ، فرفع رجله على ظهر الحمارة .

كان الباب ضخما ومسودا ، يربطه بالحائط مزلاج خشبى متين ، وفوقه نصف دائرة كبيرة يتوزع فيها الخشب ليتجمع حول الدائرة الصغيرة ترقد بينهما حمامة تهدل .

ربط الحمارة فى قضيب النافذة ، تهب منها رائحة ظلام ونوم ورطوبة عطنة ، كانت ساكنة بسريرها المفروش بملاءة عليها بقع دم باهتة ، وحصيرها اللامع المنقوش والدولاب المركون على الجدار ، تجمعت عليه أشياء كثيرة ، ضرب الباب ضربة هينة .

خرجت العجـــوز بالوجه المحطم داخــل الطرحة البيضـاء ، وحدثته بالفم الخالى من الاسنان ، قالت :ما تريد يا صبى ؟ قال : انا فلان ابن فلان جئت اســـأل عن صاحب هذه الدار ، أدفع اليه قروش ابى ، ليعطينى طلبه الذى لم يبح به .

قالت : اخبر اباك أن صاحب الدار قد قبضت عليـــه شر طةالمدينـــة صباح هذا اليوم ، واخبره ان العجــوز ام صاحب الدار تطلب اليك أنت صاحب المكانة أن تتوسط اليه لدى مأمور المدينة .

فى الطريق قال لنفســــــه : ابوك اعطـــاك القروش تدفعها للرجل مقـــابل شىء لا تعرفه ، والرجل قبضت عليه الشرطة .. فهـــو خطير .. وللشرطة عيون فى كل ارض ، ورجالها يحملون البنـــادق المعمرة ، وأنا طرقت باب رجل كرهته الشرطة ، والليـــل بدأ خطوته فى هذه القـــرية ، وسينتهى فى قريتى أسود كوجه العبيد .

لكز الحمارة فى جنبيها ، فاندفعت فى الطـــريق بين الأشـــجار ، عند بوابه القطار ، تذكر عفاريت « عكاشة » التى تفك قيد الجاموس ، وتدلق آنية اللبن فى دواليبها ، وراح يتسمع لأنفاس تلهث خلف ظهره ، لا ينظر اليهـــا فيحرقه الشرر المتطاير من الأفواه والعيـــون ، بينما تكاثرت الأشباح أمام الحمارة ، وعلى جانبى الطريق تجــــرى بسرعة ، وتنظر اليه بخطواتها المنتظمة ، والبنـــادق على اكتافها ، وفى اليـــد سكاكين مطفأة لا تلمع ، لو يرى وجه القمـــر ، لو يرى ذبالات المصابيح عبر طـــاقات الدور

المعتمـــة لكنه راى النقطة السوداء التى تنمو وتستطيل كلما اقتربت منـــه ، لمـــا صار الوجهِ فى الوجه رأى الشـارب الكثيف المتدلى ، والعيـــون المظلمة العميقة كعيون البندقية ذات الروحين لطمته اليـــد القوية فصرخ الصرخة التى اهتزت لهـــــا فروع الشـــجر ، وماء المصرف ، وتراب الطريق .

الضـــــيف

(١)

● لمـــا طرق علينا الباب ، قامت أختى وفتحت له ، وأمى جاءت من آخر الدار ، مسحت يدها المبلولة فى طـــرف طرحتها ، وسلمت عليـــه ، فتحت باب حجرة الجلوس ، وادخلته ، ثم طلبت منى أن أصعد الكنبـــة لأفتح الشـــــباك المطل على الحوش ، غمر الحجرة ضوء شـــديد ، وبقعـــة الشمس سقطت على الصورتين المعلقتين على الجدار .

سألته عن أمه واخواته البنـــــات قال : الحمد لله .

وأختى كانت قد جرت الى الطاحونة، لتنادى على أبى ، الذى جاء على وجهه

وهدومه غبار الدقيق ، سلم عليه بحـــرارة ، وســـأله عن أبيـــه والجماعة ، أراد أبى أن يجلس الى جـــواره على الكنبـــة فرجرته أمي « هدومك وسخة .. قم غيرها » .. وأشارت اليه بعينها .

تهامسا فى الردهة ، ثم أعطانى أبى نقودا لأشـــترى كوكاكولا ، وعاد يرحب بالضيف « أهلا وسهلا . شرفت » .
لمـــا عدت ، وجدت أمى وأختى فوق السطح ، وسمعت صوت الدجاج يكاكى ، ودبدبات الأقدام على السقف .

دخلت حجرة الجلوس حاملا الصينية ، وكنت حريصا على الزجاجة الطويلة المنتصبة ، حتى لا تنقلب على الارض ، ودخلت من الباب بجنب .

كان أبى جالسا الى جواره بهدومه المتســـخة ، قام ليأخذ منى الصينية المرتعشة ، وقدمها للضيف .

كان وجهه لامعا ، وحـــــذاؤه كان يبرق فى قدميه ، ولباسه فاخرا نظيفا ، وشعره الناعم المنسق ينام بنظـــام على رأسه .

قلت فى نفسى : هكذا أبناء المدن .

وتمنيت أن أكون مثله ، وأكدت اننى سأطلب من أبى قميصا وبنطلونا كاللذين يلبسهما الضيف ، وعزمت أن أغسل شعرى كل صباح ..

استأذن أبى ليبص على الطاحونة، وقال انه سوف يعود حالا ، وطلب منى أن أجالس الضيف .

كنت أريد أن يحادثنى عن المدرسة لأقول له اننى (الألفة) وأن اسمى مكتوب على لوحة معلقة على جدار الفصل والى جواره : رائد الفصل ، وكنت أود أن أحضر له كراريسى ، لأريه نمر المدرسة ، ولأقول له اننى غاوى رسم ، ولى رسوم كثيرة معلقة على حوائط المدرسة ، ولكنه فقط سألنى عن سنى ، ثم فاجأنى بالسؤال عن نسوان بلدنا .

لما عاد ابى مرة أخرى ، رحب به وقال : زارنا سيدنا النبى ، وسأله : الوالد بخير ؟ .. قال : الحمد لله .. كلهم تمام . وطلب الضيف أن يقوم برحلة الى الغيط ، يرى الزرع ، ويقضى يوما فى الشمس .. فاستدار أبى الى

وقال خذ الحمارة .. وفسح الاستاذ ، على أن تعودا على الغداء .

عبرنا الدار الى الحوش ، رفعت البردعة من على الفرن ،و تحاشيت الدجاجتين المذبوحتين ، ترفرفان وتنثران الدم حولهما .

سحبت الحمارة من الزريبة المظلمة ،المسقوفة بالجريد والقش ، وثبت البردعة على ظهرها ، وركب الضيف ، وركبت أنا أمامه ، لنخرج من البلد ، الى طريق المصرف الطويل .

— ٢ —

● كانت الارض التى نزرعهـــا تمتـــد من وراء دور العـــزبة الى ارض الاصلاح البعيدة ، على رأسها ساقية وجرن يحوطه سور مشقق ، ومصلى تنام عليها الشـــجرة العجوز ، وعلى جانب الجرن الدار ببابها القديم ، ونوافذها المخلعـــة ، فى جذع الشـــجرة عقدت مقـــود الحمـــارة ، واتجهت الى الدار ، قلت له : هـــذه الدار عشـــنا فيهـــا عامين .

●

رفعت القفـــــل الاســـود الثقيـــل ، ودخلنا الردهة المسقوفة بالسماء ، قلت له : نستريح قليلا .. بعـــــدها نتجول فى الزرع .

وقلت : كانت الدار مسقوفة ، ســـقفها كان مرفوعا على جذع شـــجرة كبير ، وكنـــا نسمع مدة العامين صـــوت « القراضة » فى قلب الجذع ، وقال أبى يومها ، انهـــا القراضـــة الملعونة ، سنرفع الجذع الكبير ونبدله بقضيب حـــديد ، ولكن الجـــذع لم يمهلنا ، قمنـــا ذات صبح نفتح باب غرفة النوم ، فلم ينفتح ، كان السقف قد ملأ الردهة ، ولم نشـــعر بسقوطه ، ومن ستر الله ، أن « الســـهارة » كانت مشتعلة طول الليل ، لم تصـــل نارها الى السقف ، لأن سقوطه أطفأها .

لوا شتعلت ، كنا متنا وسط النار، بعـدها حلفت أمى الا تعيش فى هذه الدار أبدا ، وقالت لأبى نضـيع ولادنا هدرا ، والححت انا وأختى علىأ بى حتى وافق على ترك هذه الدار ، لنعـود الى البلد .

تركنى الضيف وراح ينظر الى داخل الحجرات .
قلت له : أم هذه فكانت حجرة الجلوس ، فرشـتها أمى بثلاث كنبات ، خاصـة وأن لها بابا خارجيـا ، كان بامكاننا استقبال الضـيوف دون أن يدخلوا من البـاب الكبير .

وكنت أريد أن أحكى له عن أيامى فيها ، ولكنه سـد فمى بكفـه ، ولمـا راح ينظر فى الحجرة التالية ، قلت : أما هذه الحجرة فكان بها فرن ، وهذه آثاره كما ترى ، كنـا نقضى فيها الشتاء ؛ كانت أمى كل مغـرب توقد الفـرن ، وتسـد منافذ الحجرة ، لنجتمع كلنـا فوق قبوه ، وكان أبى يستقبل ... أدار وجهـه المكشر وقال : أنت تتكلم كثيرا . فتصلبت فى مكانى ، وتركته يجول فى باقى الحجرات ، حتى انتهى الى الزريبة الممتدة بعرض الدار ، ثم خـرج الى الجـرن .. وقف على كومة التراب يبص على الارض من تحتـه ، خرجت اليه ،و سألته : نمشى فىالزرع ؟

كنت أرغب فى تعريفه بأنواع النبات المزروع ، واحكى له عن جيران الارض وعن أيام الدودة ، وسهراتى فى الخص أيام زرعة الخيار والطماطم ، وعن الذئب الذى يسعى الى الحقول ليلا ليبث الرعب فى قلوب الرجال ، وكنت أستطيع

ان اقول له اننى لا أخاف الذئب ، وكنت أود أن أكلمه عن ذئاب كثيرة ، سمعت بها من الفلاحين .

نزل عن كومة التراب ، وامسك كفى ، سحبنى الى مدار الساقية ، وسألنى عن دور العزبة التى تقع تحت بصرنا .. فذكرت له أسماء أصحاب الدور ، سألنى عن أعمالهم ، فقلت له : كلهم فلاحون ما عدا (عبد العليم) فهو متطوع فى الجيش .. وسألنى : وهل يسكن هنا ؟.. قلت : له حجرة فى دار أبيه الكبيرة . وسألنى : متزوج ؟ قلت : زوجته من المدينة ، تلبس الروب المزركش بالورد الكبير ، وتعقص شعرها تحت منديل مزين بالترتر ، وهى خياطة تخيط الهدوم لنسوان العزبة . وللسانها لهجة لا تعرفها النسوان هنا .

استند على كتفى وقال : ولكنها لا تظهر ..

قلت : ربما تعمل داخل الدار فهى لا تذهب الى الغيط ...

وسألنى عن باقى النسوة ، فذكرتهن جميعا ، خبط بطنى بلطف ، وسألنى عن أجمل واحدة فيهن ، قلت (وهيبة) البدوية ، بنت (سليم العرباوى) وهى رغم جمالها لم تتزوج ، فالبدو لا يزوجون بناتهم لفلاحين ، وأمها (عالية) لها اتصال بالجن وتقدر أن تزوجها أحسن رجل فى الدنيا ، وهى تقول أنها لن تزوج (وهيبة)

الا لموظف من ابناء البدو يسكن المدن ، ولكن كل الفـــلاحين هنا يحبون (وهيبـــة) ويرغبونها زوجة ، وهى تدل عليهم ، تسرح بغنماتهـــا مع ابيهـــا من الصـــبح حتى المغـــرب ولا تكلم الرجل الغريب .

نزلنـــا عن مدار الساقية ، وجلسنـــا فوق سور الجرن، وسألنى : لكن فى العامين اللذين عشتهما هنا .. أكيد سمعت عن عـــلاقات خفية .. فحكيت له عن زوجة شيخ العزبة ، وعلاقتها بـــ (أبو طبيخ) وقلت له هى امرأة نحيلة ســـوداء جافة ، تعمل خبازة ، لكنهـــا تهتم بمظهرها ، فهى تعقـــد منديلها على جنب ، لاتفارق عينيها الكحلة ، وتقول أمى ، أنها تتكلم باليد والحاجب ، وشيخ العزبة عجوز أعور لا يكف عن الكلام يفض النزاعات بين الفلاحين ، ويصلح بين الرجـــل وامرأته ، ويدخل فى كل مشكلة ، فهو دائم التجوال وواجباته كلها من خارج داره ، ويشرف على الأنفار فى أيـــام الدودة ، ويسجل محاضر المخالفات للفلاحين ، و (أبو طبيخ) صعيدى حل بالعزبة ، له زوجة بيضاء كالشمع وبنات بيض يعملن معه فى حقله الضيق على شريط القطار ، وهو مهتم بالنحـــل ، له خلايا يخرج منها العسل كل ربيع ، وهو طويل فارع قوى ، صوته خشن يهز العزبة حين ينادى على زوجه أو بناته حين يكن بآخر الغيط .

وقد سمعت من الناس أنها تطبخ له الحمام كل ظهر ، وتنسحب خفيـــة من وراء الدور ،ولا تمشى فى طريق ، بل

تخترق الزرع حتى تصل اليه فى أرضه ويناما معا فى خص القش ، تحت شريط القطار ، وسمعت أنهم عثروا عليه مرة فى حقل الذرة ، وقد خطفوا سرواليهما ولكن شيخ العزب زمجر فى وجه الرجال ، وسب أمهاتهم ، وقال انهم يشنعون على زوجته ، لأنها برقبة نسوانهم ، وحكيت عن (وحيدة) و (مكاوى) وكيف عثروا عليهما يوما عريانيين فى القناة الجافة وسط الزرع ، ولما سألنى عن (وحيدة) قلت له هى زوجة (مكاوى) .

فقال : اسكت .. أنت كثير الكلام .

وسألنى : نقدر نزور شيخ العزبة

قلت : لو كان أبى معنـــا .

وقلت : هو صديق أبى ، يزوره فى الطاحونة ، وكثيرا مايأتى معه ساعة الغداء ، ولما كنا نسكن هـــذه الدار ، كان يقضى معنا ليالى الشتاء ، فوق الفرن ، ويقص علينا حكايات كثيرة .

قال : اسكت .

فسكت ، أدار لى ظهره ثم قام يمشى فى الجرن ، وقف ينظر الى الدور .

سألته : نتجول فى الزرع ؟ قال : اسكت .

وفجأة عاد الى وسألنى : لم ربطت الحمــارة خارج
ندار؟ وطلب أن اربطها على مذود الزريبة ، سحبت الحمارة
ى الردهـــة .. ورفعت عنهـــا البردعة ، شــددت باب
زريبة المرتفع بقطع الخشــب ، وربطتهـــــا على مذودها
فارغ ، وعدت اليه .

قال : ابق هنا ..

— ٣ —

● قضى أبى صلاة العشاء بالدار ، افترش المصلى أمامنا ، وكنت أنا والضيف جالسين اليه ، ونسمع تراتيله، ليختم الصلاة وسلم ذات اليمين وذات اليسار ، قام يلم المصلى ، قال له الضيف « حرما » فردعليه « جمعا .. ان شاء الله » ونادى على أمى ، لتعد العشاء .. وجاءصوتها من الداخل : « جاهز » ثم دخلت علينا أختى بصينية ، بعد أن فتحت الضلفتين وضعت الصينية على منضدة بوسط الحجرة ، وعادت بالقلة فى طبق ، حملق الضيف فى وجهها، فارتعشت عيناها ، وسألت أبى ان كان يريد شيئا ، فأمرها بأن تجعل أذنها معنا ، قد نحتاجها وأشار الى الضيف : تفضل .

كان على الصينية طبق قشدة ، وجبن وطعمية وحلاوة طحنية وخبز محمص ، شمر أبى كمه وردد البسملة بهمس ، وقام أبى لينام ، استأذن من الضيف وقال : انتم شباب تقدرون على السهر ، ودخل حجرته بوسط الدار ، كذلك دخلت أمى وأختى الحجرة المواجهة ، وأغلقنا الباب وبقيت أنا والضيف فى حجرة الجلوس صامتين، لا نتكلم ، حتى طلب النوم ، وصحبته الى حجرتى ، فخلع قيمصه وارتدى جلباب أبى الفضفاض ، وسحب البنطلون من أسفل ، أطفأ النور وتمدد الى جوارى ، تنهد براحة ، وسألنى : كيف تقضى ليلك ؟ فأجبته : فى المقهى المفتوحة

ابوابه على المزلقان ، فهناك نشرب الشاى ، ونتفرج على فيلم التليفزيون ، ونتسلى بالسودانى واللب ، أما الرجال فهم يتحلقون الى جـوارنا ، يلعبـون الطاولة والدومينو ، ويدخنون الحشيش ، فى أيام الدراسة أذاكر ولا أسـهر فى المقهى الا ليلة الجمعة ، دفعنى بيده حتى صدمت بالحائط ، وقال : نـم .. نم . فنمت ، وكنت لا أريد النوم .

ليل النهر

سمعت الاصوات الخافتة تأتى
من وراء ظهرى قلت فى نفسى : وصل .
رأيت أشباحا سوداء فى الحافة ، بيد
أحدهم فتيل تتراقص شعلته .. كانوا
يحملقون بصمت وحذر فى الماء قرب
الحافة ، قمت الى الجهة الاخرى ،
ورأيت شبحه بينهم ، ورأيت جسما طافيا
على سطح النهر ، يقبل جهتى ببطء ،
أمسكت حديد السور وأملت رأسى لأنظر،
واقبل الجسم ليمر من تحتى ، كان وجها
مستديرا ينساب وراءه ، شعر طويل
يتماوج فى الماء ، باقى الجسم كان
غاطسا فى العمق ، فقط الوجه والشعر

الطويل المتماوج ، وجزء من ساق متخشبة فى ثنيتها ، والجلباب كان منسحبا الى أسفل ، يبدو فى الماء بعيدا كطيف .

والأشباح التى رأيتها على نور الفتيل لما وصلت الكوبرى صعدت الى الجسر ، لتستقبل الجسم الطافى من الجهة الاخرى ، اتجهت اليهم ، فبدت وجوههم المذعورة على نور عمود الشارع ، امراة بجلباب النوم محلولة الشعر ، تنوح نوحا خافتا ومكبوتا ، تمسك أطراف جلبابها بقبضة مشدودة متوترة ، ووراءها رجل بعنق طويل وشارب معقوف ، يقبض على زندها ، يدب بأقدامه الحافية على الارض بعنف ، وشال عمامته كان مفكوكا على كتفه ، ورجل يلبس جاكتة البدلة فوق بيجامته المخططة ، ونظارته الطبية التى كان يرفعها من حين لآخر وحبات العرق المتشبثة بجبينه لمعت فى الضوء ، رآنى حين ظهرت عليهم فجأة ، التفت الى وجهى بسرعة ، وأهملنى لينضم الى الجماعة ، أمسكت بكف صديقى المبلولة وسألته : فيه ايه ؟

شدنى لننزل تحت الشجرة الكثيفة الأوراق وهمس فى أذنى : غريق .

افلت الرجل الطويل العنق يده من ذراع المراة وانحنى على غصن جاف ملقى تحت الشجرة ، ضرب به سطح الماء ونادى على الغريق بصوت ضعيف : حود يا طالب الدفنة .

وتابعت المراة نداءه : حود يا طالب الدفنة .

والراس فوق الماء انعكست عليه الوان مصابيح

النادى ،و ســـار فى اتجاه واحد كان على بعد مترين من الحافة يســـير مع التيـــار الهادىء ، قلت لصـــــديقى : الظاهر بنت . قال : بنت .

وصعدنا مرة اخرى الى الجسر ، عدل الرجل النظارة وقال : ننتظر عند حوداية البحر .. أكيد حيقف هناك .

ومشينا نحو انحناءة النهر خارج دور البلد ، وأقبلت الدراجة عليها الرجل السمين مقطوع الساقين ، كان يسحبها ولد سقط شعره على عينـــه ، قال صـــديقى : محمـــــد النص . قلت : ماتقلوش .

سأل محمد النص : فيه ايه ؟

قال الرجل الذى يلبس النظارة الطبية : غريق .

وأمر محمد النص الولد أن يعود بالدراجة ليلحق بنا ، دسنا التراب الناعم فوق الجسر ، حين بدت قبـــة المسجد بيضاء بين خوص النخيـــل ، أضاء مصباحها المعلق فى الهلال الحديد ، وامتد فى المـــاء شريطا من النور حتى الشـــاطىء الآخر اتجهت المراة جهة القبة ، ومدت يدها : يا شيخة آمنة.

قال صديقي : فاكرة ان الغـــريقة بنتها . سألته : بنتها ؟ قال : سابت لهم الدار من اسبوع . ســـأل النص من فوق دراجتـــه : بنت مين ؟ قال صديقى : معرفش . واكمل فى اذنى : لمـــا ضربوها ولعت فى هدومها .

سألته : ضربوها ليه ؟ قال : كارهة عريسها .

جمع الرجل الطويل العنق أطراف قميصه الابيض بيده ، ونزل فى وحل الحافة ، مد الغصن حتى وصل الوجه الطافى ، وهتف بصوت مرتفع : حول يا طالب الدفنة . التف الشعر حول راس الغصن ، وشده الرجل ، فعاد اليه الغصن ملفوفا عليه الشعر الاسود المبتل ، نفخ بضيق : مفيش فايدة . قال الرجل الذى يلبس النظارة : حتقف عند الحوداية .

وسار الراس جهة انحناءة النهر ، طلب الولد الذى يمسك الدراجة أن أسند مكانه ليقف هو عند الانحناءة ينتظر الغريق ، امسكت يد الدراجة من الناحيتين وشمر الولد أطراف البنطلون الى الركبتين ، وخلع النعلين أعطاهما للمرأة وسار امامنا ليقف على جذور الشجرة التى تنبت من النهر ، سألنى النص : بنت مين ؟ قلت : ما أعرفش . سألنى : من بلدنا ؟ قلت له : الله اعلم.ودفعت الدراجةالثقيلة فوق التراب الناعم ، لنقترب من الشجرة المنتصبة بين سور المصلى ، الولد غاص فى الماء ليستقبل الجسم الذى يقبل جهته فى خط مستقيم ، لما وصل عند الحافة اصطدم بها واستدار ليخرج مرة أخرى ، فأسرع الولد اليه ، ومد يده على آخرها ، وأمسك بالشعر الطافى ، لمه فى قبضته ، وشده جهة الجسر تدحرجت المراة جهة الجسم المكشوف الساقين ، قربت الفتيل من الوجه ، مسحته بأصابعها ، وحملقت فيه طويلا : ضنى أمك .

سأل النص : تعرفيها ؟ قالت : دى غريبة .

زفرت براحة ، تسلقت الحافة ، واقتربت منا ، وراحت تنظر الى القبة وتردد : الحمد لله . الحمد لله .

ونادت على رجلها الذى انحنى على الوجه يتـــأمله : بينـــا يا راجل .. بقينـــا الفجـــر . قام الرجل ، وترك الجثة مكشوفة الساقين والولد وقف على أحجار المصلى يغســـل قدميه ، وصرخ محمـــد النص : حرام عليكو .. طب طلعوها فى المصلى . انكمش الجميـــع ، وتشبثت قبضتى على يد الدراجة ، وصرخ مرة أخرى : يعنى أنا اللى أنزل أشيلها . طلب الرجل الذى يلبس النظارة من الولد أن يرفع الجثة الى المصلى ، شـــــخر الولد وقال : مش كفـــــاية .. ماتشيلوها انتـــو . قال الرجل : نشيلها كلنا .

قالت المراة لرجلها : روح معاهم . نزل الولد عن أحجار المصلى ورفع الســـاقين وأمسك الرجلان الكتفـــين مددوها على قش المصلى ، والمرأة عبرت السور الواطىء وانحنت عليها ، فردت ثوبهـــا على الســـاقين العـــريانين ولمت صدرها المفتوح ،و الولد رفع القش وغطى به الجسم ، وترك الوجه مكشـــوفا ، قال النص : لمـــا يطلع النهـــــار المركز يتصرف .

وعدنا نحو الدور ،ســـار الولد ســـــاندا الدراجة فى المقدمة ، ومن خلفه كانت المراة مع رجلها منهمكين فى حوار خافت ، وبالقرب منهما كان الرجل الآخر يمسح زجاج نظارته فى منديله ، وأنا وصديقى سرنا فى المؤخـــــرة ، سألنى : حنروح فين ؟ قلت : أى مكان .

التجـــــلى

● حين طردت النفس الأخير ،
وسكن صدرها ، انسحب ضوء العين ،
صرخت النســوة ومدت واحــــدة منهن
اصبعين يسبــلان الجفنين ، ويســـدلان
الطرحة البيضاء على الوجه الذى صار
أصفر بلون المصباح المعلق على الجدار.

مسح الخـــال دمعتين بطرف كمه
وقال : ياعينى يا أختى . قبل ذلكبيومين
وحين وصلت البلد مساء ، كان بقلبى
شوق شديد للقاء البنت التى أحبهـــا ،
لكن أمى قالت : خالتك مريضة .. واجب
تزورهـــــا .

قلت : لا احبها . قالت : عمرهاماغلطت فيك.

دفعت الباب الموارب ، ودخلت عليها غرفتها ، كانت وحيدة فى فراشها ، الغطاء على نصف ساقيها وشعرها منكوش يختلط فيه الشعر المصبوغ بالحناء بشعر عليه بقايا صبغة سوداء ، التفتت على دفعة الباب ، وكانت عيناها غائمتين لا تريان غير الدخان ، سألت : من ؟ قلت : أنا ياخالة . قالت: الم تعثر على ابن خالتك فى مصر ؟ قلت : يا خالة مصر واسعة .. غدا يجيء . قالت وهى تبكى وكانت ترفع ذراعا تملس بها على شعرها ، ووجهها وترميها بعيدا ، ثم ترفع الأخرى تملس بها شعرها ووجهها وترميها بعيدا : ياوابور يابو عجل حديد .. هات لنا الغرايب من بلاد بعيد .. دخلت أمى ، افترشت الحصير ، واسندت ظهرها على الكنبة ، شقت برتقالة نصفين وناولتنى نصفا ، قالت : ناولها ربما تأخذ من يدك .

أخذت نصف البرتقالة ، قربته من شفتيها ، فاصطدمت به ، قالت : برتقال ؟ قلت : مصيها . قالت وقد أدارت وجهها جهة الحائط : لا .. لا اريد .. نفسى لاتقبله . تركتها مع أمى ، وخرجت أبحث عن الصحاب ، لنقضى سهرتنا – كالعادة – على غزرة « العربى » قلت لهم : خالتى مريضة . قالوا : ربنا يشفيها .

حضرت زوجات عمى والجارات لابسات الهدوم السوداء ، بحثت بينهن عن العيون التى أحبها ، واشتاق اليها فى بلاد الغربة ، صوتن كثيرا وبكين قليلا نوحن فى نفس واحد : ياخراب بيتك ياحبيبتى .

وكانت أمى قد قامتتجمع هدوم الخالة ، تعقدها فى صرة ناولتها لأختى لتذهب بها الى دارنا ، لما عادت جمعت مع أمى الدجاج الذىتكوم فى ركن مظلم عند الفرن ، ورفعا معا صورتها عن الجدار (كانت تبتسم بوجه أبيض بلون الحليب ملفوف فى طرحة خفيفة شفافـــة يظهر من تحتها منديل راسها الأسود) النسوة سكتن مرة واحدة ، وانتشرن على الحصير يمصمصن شفاههن ، كانت تخـــرج منهن أصوات مكتـــومة متشنجة ، ثم بدأن يحـــكين عن أمواتهن ، ويذكرن أنها كانت نعم الجارة ، نظيفة طـــول عمرها ، عايقة ، تحب الثياب الملونة ، ولم ترفع طرحـــة الصلاة عن راسها منذ أن مات زوجها ، لاتأكلالا اللقمة الحلوة ، وقلن أن ابنها هو الذى كان شرسا وحشاشا وخمورجيا ، كان يكسر لها الصينى والمرايا ولم تسترح الا حين غادرها الى مصر ، ودعين الله أن يهديه ، وأن يرحم أمه الطيبـــــة ، لما بدأن يتململن طلبت أمى منهن أن يعدن الى بيوتهن لأنأزواجهن وعيالهن فى حاجة لهن ، أما هى فقاعدة وأنا معها ودعت الرب بأن لاتمشى لهن فى مكروه .

بقيت أنا وأمى وحدنا مع الخالة التى سترها الغطاء من الراس الى القدم ، جلست أنا عند القـــدم ، وجلست أمى عند الراس ساندة خدها على كفها ، أغفت قليـــلا ، ثم انتبهت فجأة تنفض عبها وتستعيذ بالله من الشيطـــان الرجيم . وطلبت منى أن أساعدها فى تقليب الجثة خوفا من الرائحة التى قد تنتشر منهـــا ، رفعت الغطـــاء فبان وجهها ، وانكشف فخذها ، قربت أمى عينيها من وجـــه الخالة مدة طويلة ، بعـــدها وجـــدت ملامحها انكمشـــت

وانفرطت من عينيها دموع غزيرة ، وبكت بصوت عـــال لم تستطع منعه ، وراحت تعدد :

ديـرى المخـــدة يمين
ما نتيش غشيمـة يابنتى
زاد علـــى النيــــن
ديرى المخـــدة شمال
ما نتيش غشيمة يا اختى
زاد علـــى الحـــال

انا الذى حافظت على دموعى بكيت بكـاء حقيقيـا بدمـوع وحزن شديد شعرت معه بأن جسـدى يتطهر ، ورأيت ـ فجاة ـ ان خالتى فى نومتها هذه مظلومة ، بـل اكتشفت مرة واحدة انها كانت طيبة جدا ، وانهـا كانت تحبنى كابن لها ، امسكت كفها التى صارت عروقهـا زرقاء تتفرع فى جلدها الذى فقد لونه .

نامت خالتى فى طاعة على جنبها الأيسر ، لممت ثوبها، وسترت فخذيها ، وجمعت فتحة الصـدر فى الدبوس الذى كان مشبوكا فى جانب واحد ، حين ثقلت رأسى رحت فى غفوة قصيرة .

(رأيتنى صـغيرا جـدا بين يدى الله الجالس على عرشه المضىء ، على يسـاره سـور عال تطل منه السنة اللهب المرعدة وعلى يمينه سـور عال تطل منه أغصـان العنب المثقـلة بالثمـار انتبهت بعـدها على صـوت المؤذن : سـبحان من تسمى قبـل ان يتسمى . . سـبحان من كان عرشه على الماء ، سـبحان من علم آدم الاسماء .

شعرت — فى الحال — أن خالتى نائمة ، وأنها سوف تقوم من نومها حين بطلع نور الصبح .

فى الصبح أحضر الرجال المغسلة ، أدخلوها حجرة الكنب بعد أن رفع ووزع فى الشارع يقعد عليه المشيعون ، أما النعش فقد ركن أمام الباب فى جوقته كان اللحاف يلمع حريره الأحمر ، وباقة ورد دابلة ثبتت فى المقدمة عند الرأس .

خرجت خالتى من بين الضلفتين لفة بيضاء معقودة من كل جانب ، فاحت قبل أن تطرح فى الخشبة رائحة عطر عتيق ، تركنا أختى وحدها فى دار الخالة ، بينما سرت أنا فى المقدمة مع الرجال بتأبطنى صاحب كان معى فى الفرزة أول أمس ، والنسوة هرولن فى أعقابنا بعد أن صوتن كثيرا عندما طلت اللفة البيضاء من الباب ، وعندما توقفت خشبة الميتة ، وحرنت من الرجال تريد أن تدخل الدار ، قالت النسوة . يا وأبور يابو عجل جديد .. هات لنا الغرايب من بلاد بعيد .

عقب صلاة العصر حضر الشيخان ، دخلا المضيفة ، ووقفت أنا فى الصف مع الرجال أستقبل المعزين يقولون : عظم الله أجركم ، وأرد : شكر الله سعيكم .

بينما النسوة فى دارنا قد أوقدن النار ، وصففن عليها أوان ممتلئة باللحم الذى أحضره الخال من جزار القرية المجاورة ، وبالبطاطس التى اشتريتها أنا من السوق .

قلن أنه حينما وصل مع زوجه اللابسة السواد ، صرخت النسوة فى وجهه وجددن البكاء الذى نزفته فى الصبح ، فما كان منه الا انه سبهن جميعا وطلب منهن أن يخرسن وأن يرحن الى دورهن ، فالميتة هى أمه وليست أم أحد غيره ، وأكدن أن عينه كانت حمراء بلون الدم ..

أما أنا فقد رأيته فى الصف بين الرجال مقبلا عند أول الشارع بوجهه الضاحك لا يظهر عليه حزن .

وقالوا : ان موت أمه لم يهزه ، بل لقد كان فرحا ، فهو سيرث الارض التى سيبيعها للغريب ، ويقعد فى الدار مع زوجه التى لا تلد أبدا ، وسيرتاح من أمه التى ضربها كثيرا وكسر القلل فى وجهها ، وطعنها بالسكين حين طالبته بأن يعود للوظيفة ويدع لها الارض ترعاها .

سلم على ، وقال اننى قد أوحشته ، وكيف أكون فى مصر ولا أزوره فى بيته وهمس فى أذنى ان بجيبه تعميرة نظيفة ، واننا سوف ندخنها عقب هذه الزيطة التى لا داعى لها ، ووقف الى جوارى فى الصف يمد يده للرجال ، فى التو انتشرت رائحة الكحول من جوفه ، فتركت الصف ودخلت عند النسوة آكل طبق بطاطس أو أرز فقد شعرت بجوع شديد .

هناك عثرت عليها بينهن تخرط البصل ، ودموعها غطت العينين الجميلتين ، وسالت على خديها اللذين طلع عليهما ورد أحمر ، ابتسمت لى وهى تزيل الدموع الساقطة ، نسيت الجوع ، وحاولت أن أصل اليها .

قالت لى حين حطت الاناء على الفـــرن : الليلة .. فى نفس المكان .

فى أول الليل أشعلنا النار ، وجلسنا فى الغـــرفة التى بآخر الدار ، حين كان يرص الحجارة ويمد لى يده بالغابة ، قال النكتة التى أضحكتنى ، وغطت على تشنجات النســـوة المكتومة فى حجرة الكنب .

فى آخر الليل كنت بين الجدارين المهدومين فى انتظارها.

الضحى العالى

— ١ —

حضر معنا عرس ابيك ، وكنا قد صلينا العصر ، وخرجنا من الجامع الى دار العروس ، وصعد معنا السلم المرتفع ، جلست بين أصحابى ، وجلس هو هناك بين الكبار حول المأذون ، وخرج فى الصورة مع العريس ضاحكا فرحا ، وفى الصورة الاخرى كان يجلس قرب الدولاب ، فالتقطت الصورة جانب وجهه فى المرآة .

وفى دارنا ، لما جاءت أمك فى السيارة الصاخبة ، رفعها أبوك بين يديه ، وأدخلها فى زحام الناس الى الصالون ، فاستدعوه من الصالة

والتقطت له الصورة بين أصحاب العرس .

هذا هو جدك يا أسماء ، الذى أشـــار الى بطن أمك بعد خمسة شهور من زفافها وقال : ولد ان شاء الله .

ضحكت أمك وقالت : أسميه باسمك .

— ٢ —

قضى الحاج صلاة الفجــر ، وعاد الى الدار ، دفع الباب الكبير ، كانت الدار ساكنة ، الجــدة نائمة ، وحجرتكم مغلقة ، يشتعل زجاج بابها بالنور الاحمر ، فتح البــــاب على الجــدة الراقدة على فراشها تئن من أوجاع رجلها ، خلع العباءة عن كتفـــه ، وعلقها على الشماعة ، اســتدار اليهــا :

— لسة نايمة ؟

نظرت اليه من تحت الغطاء ، ولم ترد ، سألها :

— مين حيجهز لى الفطار ؟

بحلقت فيه . ولم ترد .

— ما بترديش ليه ؟

— انت مش شايف .

— الهى تبقى عليلة على طول .

— رح يا شيخ الهى اللى فى يجى فيك ..

خرج الحاج الى الصالة ، ووقف حائرا ، فكر أن يخبط على باب حجرتكم ، لكنه تردد .

كان حين يعود من صلاته ، يجد زوج ابنـــه قد أشعلت النـــار فى الموقد ، وجلست فى ركن الحجرة ، تقسم الرغيف نصفين ، تضع النصف على الجذوات ، وتهب عليـــه بذيل جلبابها ، بعـــد أن تنتهى تدس براد الشـــــاى فى الرماد

الساخن وهو على الكنبة ، الى جواره المذياع بردد قــرآن الصبح منتظرا الخبز والشاى .

هذه يا أسماء عادة جدك من زمان ، كانت جـــدتك تمـــد له افطاره ثم عماتك قبل زواجهن ، وها هى أمك تقوم بواجبها ، ولكن أباك أمرها :

ــ طالما انا فى أجازة لا تلتفتى لغيرى .

حاول الجد أن يعد افطاره بنفسه ، ولم يرد ازعاج احــد ، ها هو الموقد ، وها هى زجاجة الجاز، والبراد معلق فى مسماره ، ولكن الكوالح فوق السطح ، وهو العجوز الضعيف لن يقدر على الصعود ، قال لنفسه : بلاش النار . وحاول صنع الشاى على وابور الجاز ، ولكن أين هى علبة الكبريت ، وأين يجد علبة السكر ، وعلبة الشاى ؟

عاد الى الجدة يسألها فردت بخشـــونة : انا من يومين قعيدة ، معرفش حاجة فى الدار .

كان لابد أن يخبط على بابكم ، ليوقظ أمك فتحضر له هذه الاشياء خبط البـــاب ، ونادى بصـــوت عال ، وجاءه صوت أبيك يسبه من خلف الباب ، ثم خرج اليه فى الصالة ليزعق فى وجهه : لا راحة فى شغل ولا فى الدار .

وهو الرجل الذى ادب أولاده الكبار ، ولم يزل الواحد منهم ــ وهو أب لأولاد وبنات ــ يرهب طلعته ، انســـحب الجد الى حجرته ، وقعد على كنبته ، ســـاندا رأســـه على كفه ، لا يجيب .

كنا حول الموقد بحجرة الجـد ، بينما المطـر يخبط شيش النافذة المغلقـة ، سمعنا الطرقات القوية على الباب الخارجى ، كان البوسطجى بيـده مظروف ، قرأت ما به للجد فانهار على الكنبة ، كانت ادارة الآلات البخـارية تأمره بغلق الطاحونة ، لأن الشروط الصحية لم تعد متوافرة لها ، فهى تقع وسط المبانى ، فى حين ينبغى أن تكون المسافة بين وابور الطاحونة واقـرب دار لا تقـل عن خمسـين مترا .

هل هذه نكاية من أحـد الجيران ؟ لا أحـد يدرى يا أسماء ، وما حدث أن الجد خرج رغم الوحل ، وسافر ليقضى ليلته فى بيت ابنتـه التى تسكن المدينة ، ليقـابل المسئول فى صباح اليوم التالى .

وسمعنا من عمتك أنها كانت قاعدة بجوار بابهـا ، ووصل اليها لهاث ثقيل من جانب السلم ، راحت تنظـر ، كان الجد متربعا على البسطة عاجزا عن الصعود صرخت :
آبا ايه اللى جابك الساعة دى ؟

ونزلت اليه لترفعه من ذراعه ، الى الدور الخامس ، حيث الشقة .

كان جدك قد بذل مجهودا كبـيرا ، فاستند منهارا على

مسند الكرسى . وتعود الجد مسك العصـــا ، هـــو الذى يسخر من ابناء جيله الذين انجنـــوا للشيخوخة ، وكان الجد يقعد على كرسى الصـــالة ، والعصا بين ساقيه يؤرجحها ، ويحادثها : ايش حال الاتنين .. بقوا ثلاثة .

ظل جدك يا أسماء ، رغم هيكله الهـــزيل يتردد على المكاتب وراء الاوراق ، فكان يكثر من السفر ، وفى مرة جرح فى معصمه ، فقد أراد أن يركب الاتوبيس ، وما أن وضـــع قدمه على السلم ، حتى تحرك مسرعا ، ويد الجد بين بابه المغلق ، وظل يسحبه وهو يجرى معه مسافة طويلة .

دخل يوما بعد آذان الظهـــر ، مرق من الصـالة الى الحجرة بآخر الدار كانت جدتك وأمك بين الاوانى ، يلفان أوراق الكرنب على الارز ، والوابور يجلجل متداخـــلا مع تكتكة الطاحونة ، فلم يسمعا خطو الجـــد ،الذى جلس الى طرف الكنبة بهدوء .. بعد برهة التفت اليهما وصاح : ارقصــــوا .

نظرت اليه الجـــدة مندهشة ، وقد لمت طرف أذنهـــا فى كفهـــــا : ايه .. بتقـــول ايه ؟ رد عليها : بقـــــول أرقصوا .

ولأنها لم تسمع ، رددت أمك عليها ما قاله الجـــــد ، فالتفتت اليه مرة أخرى : ليه ؟ فأجاب بفرح : الطـــاحونة مش حتقفل .

وعادت الجدة الى الملفوف تصفه فى الاناء ، وهى تقول : طيب .. مبروك . كانت الادارة يا أسماء قد سمحت بأن تعمل الطاحونة ، على أن يقوم صاحبها ببناء جدار يدور حول وابورها ليمتص قوته ، فلا يهدم دور الجيران .

وعند صـــلاة الفجر ، سمعت الجـــدة الآذان يتردد على المآذن ، ولكنها لم تسمع كحتـــه فى الحمـــام ، ولم تسمع الحنفية تصب عليها ماء الوضـــوء ، والبـــاب الكبير لم تهتز

سقاطته للدفعــة القوية التى تصحب خروجه الى الجامع ، انسحبت الجدة من تحت غطائها ، فوجدته فى فراشــه يرتجف ، فاقتربت منــه : حاج .. مالك ؟ فنقــل رأســه جهتها ببطء : هاتى بق ميه .

كان جدك يا أسماء قد استسلم للمرض ، بينما اجتمع الرجال لما أشرق النهــار فى الحــوش حــول الاسمنت والرمل ، يرفعون الجدار ، حين سمع أصواتهم ، أصر أن يرفعوه الى هناك ليشرف على البنــاء ، رفضت الجــدة ورفض الأبنــاء . وأصر بعنــاد ، فأحضروا له عصاه ، ورفعوه من أبطيه ، حيث أجلسوه على الكرسى ، وضــع ساقا على ساق ،و التف بشــاله ، فى بقعــة الشمس ، بالقرب من الرجال الذين ربطــوا السقالات فوق براميل الزيت ، ليضــعوا الطوبة على الطوبة ، وجدك عينــه عليهم ، لا نفارقهم ، وفى وقت الغــداء جاءت أمك اليــه بالطبق ، فراح يرشــف الشربة ، ويبتلع حبــات الإرز بعنــاء .

وفى اليوم التالى ، طلع عليه نور الشمس من النافذة ، وتردد صوت الرجال ، ولم يطلب الذهاب اليهم ، ولما قدموا اليه الطبق بالشربة ، أزاحه بيده ، وظل نائما لا يفيق ، حتى يطلب الذهاب الى الحمام ، ولأنه كان يبذل المجهــود الكبير ، فضلوا أن يبقوا له الاناء يبول فيه .

— ٥ —

بعد يومين أيقظوه ، فلم يستيقظ ، ظل فى غيبوبته يردد انفاسه بجهد وببطء شديد ، فجعلوا السرير بعرض الحجرة ، لتصبح راسه جهة القبلة ، وفى صباح اليوم الأخير تمددت على الكنبة مرهقا من السهر ، قرب سقوطى فى النوم ، سمعت نحيب أبيك ، كان ينشج يا اسماء كطفل ضال ، فبعد أن تولى نوبة السهر على الجد بعدى ، هدأت الدار ، أعمامك الكبار عادوا الى دورهم ، وعماتك رقدن فى حجرتكم ، متعبات من عمل اليوم وظل ابوك وحده ، يشرف على الجد ، قعد عند راسه ، وبدأ يتأمل وجهه النحيل وانفاسه المجهدة ، وجسده الضامر تحت الغطاء المبلل ويده المعروقة اراد أن يرفعها لتهرش أنفه ، لكنها تاهت منه فى الطريق وخبطت وجه أبيك ، فأمسكها ، وقربها من عينه ، وتأمل وشمها المرسوم على ظاهر الكف ، انحنى عليها بشفته وقبلها ، ثم وضعها بحنان على صدره ، وفى الحال انفجر فى البكاء : يا حبيبى يا آبا .

والجد يا اسماء فى غيبوبته لا يشعر بشىء ، فقط يردد انفاسا صعبة ، ومن حين لآخر ينشق الهواء بأنفه ، كنا يا اسماء لما نرى ذلك نتوهم اليقظة فنميل عليه بوجوهنا ونهتف : آبا .. آبا .

يفتح عينه الغائمة للحظة ، ثم يعود للسقوط فى الغيبوبة .

وانتفض أبوك خارج الحجرة ، وجلس الى جوارى ، فزعت على صوته .

سألته : ابوك عامل ايه ؟

غطى وجهه بذيل جلبابه ، وهو ينكت جسمه بالبكاء : أبوك بيموت .. أبوك بيموت .. لازم نجيب الدكتور .

قلت : الصباح رباح .

قال : لازم دلوقت .. أبوك بيموت .

وخرجنا معا الى الشارع ، كان الليل يا أسماء ينسحب من الشوارع ونور المواميد بدأ يتجمع أسفلها .

نظرت الى السماء ، كانت الغيوم سوداء مكدسة فوق البيوت ، لما تركنا شارعنا وانحرفنا الى بيت الطبيب ، سقطت على أكتافنا حبات مطر كبيرة دافئة ، رفع أبوك نظره الى السماء بحزن ، وعاد بنظره الى ، والتقت عينانا ، وسالت الدموع على شاربه ، مسحها بكم جلبابه وتهيأ ليدق بيده على باب الطبيب .

بعد أن غادر الطبيب الدار بساعة ، انطلق صوات العمات حول الجسد الذى سكنت أنفاسه ، مدت واحدة منهن يدها الى عينه فأسبلتها ، وعقدت الاخرى فكه بشال العمامة .

وما أن تفجـــــر نور الشمس الذى سقط على زجاج النافذة ، حتى تجمع الرجال خارج الدار ، ووقف النعش على الباب ، ينتظر الجد الذى حمل على الاكتاف لتفــرغ حجرته من وجوده المهيب ، ولتنتهى صلاة الفجر ، وليبــدأ اليوم من الضحى العالى .

المفتـــــاح

فى واحـــــدة من صحواته ، طلب الخروج الى الصالة ، فأسرعوا اليـــه يقربون الشبشب من قدميه ، ويسندونه من الجانبين ، أنزلوه بهـدوء ليقعـــد على الكنبـــة ، وتجمعوا حـــوله ، لا يصدقون ، فقد انفتحت جفـــونه عن حدقتيــه الغائمتين ، وراح يدور بهمـا فى المكان ، تملى السقف ، ونظر جهـــة الحمام ، وجهة الباب الكبير ، ثم عاد الى وجوههم المحلقة ، وقعت عينه على الأم ، فتأملها طويلا ، زحفت بالقــرب منــه وامسكت قدميه تدلكهما : سلامة عزيمك يا حاج .

كانت البنات على الكراسى ، وعلى درجات السلم ، وفوق الحصير ، يحبسن دموعهن ، يكتمن العين بكف اليد ، أما الأولاد فقد مكثوا يرون المشهد متماسكين ، والولد الصغير كان معه على الكنبة يطوق ظهر الأب بذراعه .

وشردت الأم للحظة ، تخيلت حياتها المقبلة ، وحيدة مع ابنها الصغير ، فالتفتت اليه بلهفة بعد أن قطعت شرودها .

— وصى ابنك يا حاج .. وصيه علي .

دفعها الولد بيده ، وصاح فى وجهها .. ايه .. مفيش عقل ؟

ورفع الأب اليه عينا متعبة ، فيها لوم شديد ، كأنه يقول : ها أنا ضعيف ومقعد ، وقد انسحبت من بدنى شدة الأب .

وكأنه يقول : ها انت تزعق فى وجهها وأنا بينكم ، فماذا انت فاعل بعد أن أرفع من هنا ؟

بعد العشاء طلب الخروج مرة أخرى ، ظنوا انه يريد الحمام ، فرفعوه ، وعبروا به الصالة ، ولكنه انحرف نحو الباب الكبير ، واندهشوا : على فين يا آبا ؟ أشار بيده العظمية : ماشى سيبونى .

لم يكن من الممكن أن يتركوه ليقع ، فأراحوه ، وساروا

معـــه ، فأدخلهم حجرة الجلوس ، ليقعـــــد على الكرسى الكبير ، خلع الشبشب ، ووضع ساقا على ساق ، ثم بدأ يتأمل السقف والنوافذ والباب والصور المعلقة ، همســـوا فيما بينهم : خفف عنه يا رب . والولد الصغير بينهم يديم النظر فى وجه الأب الضامر ، وضعفه الذى يرعش البدن النحيـــل ، ويديم النظر فى الوشم حول أصبعه الكبـــير واسمه المكتـــوب على زنده وتذكر ـ فجـــأة ـ الدولاب والمفتاح .

(كان الأب قبل سقوطه فى الغيبوبة قد ترك المفتاح ، وقال لا يفتح الدولاب غيره ، وأكدوا أنه يحفظ فلوس جنازته بين أوراقه القديمة ، عقد الولد المفتاح فى عروة القميص ، وعاش معه الأيام الأخيرة بقلق والأولاد الكبار لمـــا يجـــدون الفرصة متاحة ، يحيطون به ، ويكلمونه عن فلوس الدولاب لمعرفة عددها فيعملوا حسابهم ،الموت يتكلف مبالغ باهظة ، الكفن ، وتجهيز المدفن ، وبياضـــه ، ثم هنـــاك أجـــر الحانوتى ، والفلوس التى ستوزع على المقبرة ، وأجـــرة الفقيـــة ، والبن لقهوة المضيفة ، والحاج ليس بالرجـــل القليل . لابد من تشريفه بسرادق كبير ، وفتح الدولاب كان مستحيلا ، طالما الأب فى الحجرة) .

وها هم يلتفون حوله فى حجرة الجلوس ، قال لنفسه : فرصة .. أفتح الدولاب وأرى ما به .

وتسلل فى غفلة من الجميع الى حجـــرة الأب ، كان سريره فارغا الا من المـــلاءة المكورة فى ركن ومســـانده المبعثرة .

رفع المفتاح من العروة ، وتقدم مرعوبا ، الى القفل ، وما أن ادخل المفتاح فى ثقبه ، حتى كانت الأم من خلفه قابضة على يده بعنف : أنا أمك .. أنا حضيع . نفض يده منها ، وقال : لا يمكن .. الفلوس من حق الجميع .

فتح الدولاب ، ومد يده تعس وسط الأوراق المكدسة ، ولكن يد الأم المدربة خطفت الصرة المعقودة باحكام ، ودستها فى فتحة الصدر ، فدب يده فى صدرها صائحا : لا يمكن .. لا يمكن .

وهى تستغيث بضعف : أنا أمك .. أنا أمك .

واستماتت على الصرة ، وصمم على اخراج الفلوس من صدرها ، فكتم أنفها وفمها بيده ، وحاصرها فى ركن الحجرة : لا يمكن .. لا يمكن .

وأخرج الصرة ، وعاد مرتعشا — بعد أن أحكم غلق الدولاب — الى حجرة الجلوس ، حيث كانوا مجتمعين حول الأب يحادثونه، وهو لا يجيب ، وقف على الباب ، فألقى عليه الأب نظرة أرعبته ، فارتد بظهره الى الصالة ، كانت الام وحدها جالسة فوق الحصير ، تنوح وتلطم خدها .

ظل الموت

لما عاد الابناء من الجبانة تكاثروا حولها وقالوا : أنت منذ اليوم معنا فى دار أخيك . وقالت أمهم : من ريحة المرحوم . ولما تأملوا وجهها المغضن ، اكتشفوا فى خطوطه وجه الأب الذى واروه التراب .

عند آذان المغرب ، أضاءوا حجرة الأب ، لتنير للروح التى تزور الأحبة كل مساء ، وطلبوا من الشيخ أن يتلو آيات الله لتأنس الروح ، وتبارك أهل الدار ، بعد آذان العشاء قالوا للعمة العجوز : فراش أخيك فراشك .

متواليـــات العــــزاء :

وكانت ــ فى طلعة النهــار ــ قد أقبلت على ظهــر الحمارة السوداء الضامرة ، مرت بين الرجال القـــاعدين على الكراسى المرصوصة بجوار النعش بعـــد أن قطعت الشارع الطويل يسحبها ابنها الكبير .

عند باب الدار ، فردت كفها على الجدار ، فقـــام رجل وساعدها : البقية فى حياتك ، وفتح لها البـــاب حيث واجهت السواد المكدس بالردهة ، وراحت تســتند على حوائط الحجــرات بيــد ، وبالأخرى جمعت طرف الشاش حول وجهها .

النســوة المعزيات أفسحن لها طريقا ضيقا بين ظهورهن ، وبالنظر الشــحيح لمحت على السرير ــ تحت الملاءة البيضاء ــ الجسد النحيل الساكن المســدول عليــه البياض ، تتجسد تحته تكوير الرأس وانتصابة القدمين ، والسرير كان بعرض الحجرة ليصبح الرأس جهةا لقبــلة ، والنافذة ــ فوق السرير ــ مغلقة بالشيش والزجاج لتحمى الراقد من عين النور .

على عتبــة الحجرة كادت تسقط من الوهن ، غـــير أنها فردت ذراعيها فجأة فاصطدمتا بالضلفتين ، لتخبطـــا الحائط على الجانبين بقوة ، قامت امرأة لتجلسها عنـــد القدمين المنتصبتين .

حين ارتاحت على الارض ، تنهدت اذ أنهـــا بذلت

الجهد الكبير ، وهمهمت النسوة فيما بينهن : ما كان لها أن تجيء . وقلن أيضا : العظمة كبرت . وهمست واحدة متكومة على نفسها : أكبر منه بأربع سنين .

حين مسحت الدمعتين اللتين انحدرتا فى شقوق الوجه ، رأت فى مرآة الدولاب وجهها وعمود السرير وساق الراقد حتى حدود العورة المطفأة .

كانت أحب الأخوات اليه ، مات زوجها من عشرين سنة ، لم ينقطع هو عن زيارتها فى العيدين والمواسم ، يزورها فى دار ابنها البعيدة ، وكانت تسعد بحضوره ، يطل عليها من الباب شامخا بعمامته الزاهية وجلبابه السابغ الفضفاض ، ينحنى عليها بقامته : ازيك يا فاطمة . ويمد ابنها كفه المجذوم ــ جف حتى صار كجذع شجرة سنط ميتة ــ ويحييه كما ينبغى للرجل المتواضع ان يحيى الرجل العالى القدر .

يفرد الحصير اللامع الملموم فى الركن ، يهزه هزتين يسقط الغبار المنتشر فى ثنايا السمار ،ويبسطه على الارض ، ويحلف عليه الا يجلس حتى ينيم المسند على الحصير ، ويمد خلف ظهره الوسادة المكسوة بالكيس الابيض المطرز .

هكذا يبدأ عندها العيد ، وينتهى حين يفتح المحفظة البنية الكالحة ، ويختار لها الجنيه من بين الورقات الكثيرة ، تدسه فى كيس القماش المزموم بخيط يلف على رقبتها ، وها هو مستكين للغطاء المفروود عليه ، وها هو

يطيع الرجال الذين رفعوه عن سريره الى المغسلة التى امتدت بطول الحجرة ، أما هى فقد قبعت بين النســـوة ترقب الداخل والخارج ، يضيع أنينها فى العــويل المرتفع ، تراه لفــة بيضاء نحيلة بين أذرع الرجال القوية ، مندفعة الى خارج الدار ، لتغطس فى غطـــاء النعش الممتــد أمام البــاب ، تتدحرج بين السيقان ممسكة الشــــاش لتهتف بالصوت الباكى : بالسلامة يا أخويه .

ثم ترتكن على حائط الردهة منهارة ، فى دار واســـعة فارغة احتفظت أركانها بصريخ النسوة المتشبث .

كانت الضلفتان المفتوحتان تظهران السرير النـــائم على جنبـــه ، وبقعـــة المـــاء ، وقطع القمـــاش الابيض تتناثر حولها نتف القطن المبتل ، حدثت نفسها الحـــزينة قالت : ها قد رحل زوج المراتين وابو العشرة .. الشاطر.. قضى عمره الطويل يجمع ويلملم الدور والطين والطواحين وما خرج الا بكفنه .. اليـــوم تكتحل عينه بلقيا أبيـــه وأمه ، بينما أنا المسكينة أقعد فى داره المفتوحة الابواب خائفـــة ووحيدة .

يوم الثـــــالث :

قعدت بين النســــوة لا تنبس ، شربت القهـــوة السادة ، وتغدت بين أبناء أخيها .

الخميس الكبـــــير :

كانت وحدها على الحصير بالردهة ، لمـــا عادوا من

المضيفة آخـــر الليـــل ودخلوا حجـــرة الكتب ، بسمعها القليـــل عرفت أنهم يتقاسمون مال أبيهم ، بعد مصـــاريف الجنازة والدفن والخميس ، جعلوا للذكر مثل حظ الانثيين ، والثمن للأم الكبيرة ، وادخروا مبلغا للاربعين ، ولما تذكروا الآية وتذكروها أرادوا ألا يغضبوا الله ، فمد كبـــيرهم يده بورقة حمراء ، ظلت فى كفها حتى نامت فى حجرة أخيهـــا المظلمة غير راضية .

فى الأربعـــين :

قضت النهار بين النسوة لا يكلمها أحـــد ، وحصلت على غدائها قرب آذان المغرب ، بينما رأت البنات ــ عقب الظهر ــ يختفين فى الحجرة بآخر الدار ، ليوزعن فيما بينهن أنصبة اللحم ، وسمعتهن يهمسن ويكتمن الضحكات .

فى أول الليل حين طرق ابنهـــا البـــاب ، لم يمـــانع الأولاد ولا البنات ، غير أن الأم الكبيرة قالت على سبيل الواجب : دعهـــا بيننـــا تؤانســـــنا ، والدار دار أولاد أخيها .

لكنها شدت يده ليرفعهـــــا على الحمارة الســـوداء الضامرة وعادت .

بعد الرحيل

ذات عصر عاد من السفر ، دفع الباب ، فوجد حجرة الأم مفتوحة ، وهى نائمة على جنبها ، كان الشيش مغلقا ، والظلمة الخفيفة لم تجعله يلم بالمكان ، ركن الحقيبة بين الكنبة والحائط ، وقعد فأزت الكنبة من تحته ، فانتفضت الأم على الصوت ، ربعت وسط السرير ، ولمحت شبحه ، وضعت كفها على عينها وقالت : من ؟

ـ أنا .

ـ وصلت من زمان ؟

ـ لسه دلوقت .

وارتمى فى حضنها ، فأخذته بين

يديها وقبلته على خده ، سألته : تتغدى ؟

ــ شبعان .. الجماعة فين ؟

أزاحت يدها : قافلين على نفسهم أوضتهم .

عرف أنها غاضبة ، سأل : خير ؟ فيه حاجة ؟

ــ أبدا .

ولم ترد أن تحكى له ، فخرج يغسل وجهه من حنفية الصالة ، ويلم شعث شعره ، سمع أخوه دفق الماء ، فوارب الباب لينظر ، كان بالفانلة والسروال ، ابتسم له من وراء الباب ، وأقبل عليه يقبله : ازيك .

ــ الحمد لله .

وخرجت زوجه تجمع شعرها بمنديل أحمر ، سلمت عليه بخجل ، وانسحبت الى حجرتها المسدول على نافذتها قماشة تمنع نور الشمس ، همس أخوه فى أذنه :

ــ أمك زعلانة .. وأنا .

ــ بعدين .. بعدين .

وعاد الى حجرة الأم ، فسألته بعتاب : بيقول لك ايه ؟

ـ ولا حاجة .

بعد المغرب ، عاد يلبس هدومه ليخرج الى الصحاب ، فوجد على ترابيزة الصالة طبق خضار ، سأل الام : فيه طبق طبيخ على الترابيزة ؟

ردت بغضب : ارميه لهم .

ـ ليـــه ؟

قالت بغضب حقيقى ، وكانت الدموع حائمة فى عينها : تحرم على لقمته .

ـ آكله انا .

ـ انت حر .. ما انت صاحبه .

ـ دا اخى الشقيق يا امه .

فتركته وخرجت من الحجـــرة ، وهى تقـــول : اشبع به .

كان اخوه قد انتهى من ارتداء قميصـــــه وبنطلونه ، وخرجا معا .

فى الطريق الى المقهى قال : أمك لا يرضيها شىء ، رفضت الاكل معنا ، قلت لهـــا ، خدى مصاريف ، قالت مش عايزة ، البركة فى خير أبوك ، واستحلفه بالنبى أن يفهمها ، قال له : خدها على قد عقلها ، دى ست كبيرة .
قال : يا سيدى انا خدام .

عاد آخر الليل ، وجد الام مرتكزة على الوسادة تنتظر عودته ، قال : مساء الخير .

فلم ترد ، جلس على الكنبة يخلع حذاءه ، تنهدت الام وسألت : حششت انت وهو ؟

ـ احنا رجاله يا أمه .

فأمسكته من قميصه قبل أن يفك أزراره ،وصاحت : اسمع أنت وأخـوك ، لازم نشوفوا صرفة .. تدونى كل واحـد من مهيته عشرة جنيه ، لا تخدنى معك .. وبكت .

المنسية

- ١ -

الباب الغربى مفتوح لاستقبال هواء البحر المنعش ، وساعة الغروب ينفذ منه الضوء الاصفر الذى يستطيل حتى يرتمى على الجدار ، يتمطى ليخرج من النافذة المطلة على السلم .

من الباب الغربى تتدحرج أسماء الى الفسحة ــ ينتشر على أرضها تراب ناعم لا يقضى عليه ماء الطبيخ والغسيل والاستحمام .

وهناك ــ فى الفسحة ــ تعطى الطاحونة ظهرها للدار ، تطل نافذتها ــ المسودة القضبان ــ على البئر الساخنة وحفرة ماسورة العادم ، تطلق دخانا

أســـود يترنح فى الهـــــواء حتى يدخل عشـــــة الدجاج ، فوق السطح .

هى تتدحرج تحت عشة الفرن ، بناها جدها من طوبة حمراء وطوبة سوداء ، وعرشها بالخوص والجريد ، وفرش سقفها بالقش لتحمى الفرن الراقد فى الركن كفحل الجاموس ، أسماء تنقل تراب الفرن الاســـــود ، وتدســــه هنـــــاك فى فتحة صندوق الغلال البارك كجمل عجوز .

ونسحب عود الحطب الجاف ، لتنكت فى التراب ، ننكت فى التراب ، بعـــود الحطب ، ويدها صغيرة لينـــة ، لكنها تصر ، وتخــــرج الطوبة والطوبة حتى تعـــــثر على الدودة ، نمسكها بين أصبعيها الصغيرين وتقربهــــــا من عينها ، تركتها وتواصـــــل الحفر ، هى لا تعلم أن الحفـــرة عميقة ، وبعيدة الاغوار . لا تحفرى يا أسماء ، فها هنـــا ترقد العظام ، لا نحفرى .

- ٢ -

وكانت العمات حين أقبلن ودخلن الدار قلن لأبيها : نوم أسماء .

وارب الشيش ، وطرد الذباب المكدس على السرير ، أخذها فى حضنه ، وكان قد لقمها البزازة ،وراح يهدهد على كتفها ، هدهدة منتظمة حتى ثقلت جفونها ولم ترمع عينها الساهمة عن وجهه ، حتى أخذها النوم .

وانطلق صراخ امها من الخارج ، فقامت منتفضة فزعة باكية ، حملها وهو حائر بها .

خرج الى الصالة ، ورأى انقباضة وجهها الصغير ، ويدها ممدودة الى الحجرة التى ينطلق منها الصراخ ، التفت حولها العمات ، وقلن : لا حول ولا قوة الا بالله ..

وطلبن أن يخرج بها الى الفسحة ، حتى لا يزعجها الصراخ ، واشتد بكاؤها ، واشتدت رغبتها فى الدخول الى الحجرة ، وراح يجمع اللعب التى قد تلهيها كان يعرف أنها تحب ذلك القفل الاسود الكبير المعلق فى الباب الغربى ، فأخذها اليه ، ظلت تضرب القفل فى خشب الباب ، والصرخة لما تشتد وتصل اليها ، تتوقف فجأة

عن اللعب وتنصت ، وعبث ملامح وجهها ، وسمع ابوها اصوات الرجال عند الطاحونة ، يمسك احدهم الشطة ، والآخر قبض على ذيل الجبباب بأسنانه ، قال لنفسه : ستدور الطاحونة ، وتلغى الصوات فلا تسمعه أسماء ، ولا يسمعه الجار المتطفل .

اخذها الى نافذة الطاحونة لترى الرجال قد استماتوا على اليد الحديد يلفونها بقوه ، والطارة الكبيرة تسرع فى دورانها كثور هائج ، ومكثت تنظر حتى ملأ الدخان المكان ، فتعد بها على الكنبة فى الهواء المتجدد الى أن جاءت العمة مندفعة تجفف يدها فى صدرها ، قالت : الحمد لله .. قامت بالسلامة .

سألها : ولد ولا بنت ؟

قالت . بنت .

سألها : عاملة ايه ؟

قالت : بين الحياة والموت .

واكدت أنها لن تعيش ، وقالت بعد أن لمت الخلقان القديمة : فى داهية .. المهم سلامة الكبيرة .

وعاد ينظر الى أسماء ، فيراها مبتسمة مستعدة للعب مشيرة الى القفل المعلق على الباب ، وضمها بين ذراعيه بفرح شديد .

اجتمعت العمات على الكنبة ،وقلن أسماء بالدنيا .

وهمسن فيمـــا بينهن   البنت حتـــــة من أسـماء ، نفس الوش .

قالت واحدة : بعد الشر ، اسماء جميلة .

سالهن : البنت صاحية ؟

قالت واحدة : عاشت ثلاث ثوانى ، بعدها شـــهقت ثلاث مرات وماتت . وطلبن من الاب التصرف فى دفنهــا ، قال : آخذها وأدفنها فى تربتنا بعد الظهر .

وقلن : لا تربة ولا يحزنون ، هات حد يحفـــــر لها فى الحوش .

وخرجت الداية بالميتـــة ، قطعة لحم داكنة مزرقة ، أخذتها الى الحمام ، ومددتها على الطبلية ، خلعت الداية جلبابها ، وبدأت تنزح المـــاء من الطست ، وتتلو الآيات .

وقام الاب ليشترى قطعة القماش الابيض ، وواحدة من العمات صعدت الى السطح تمسك دجاجة ، وواحدة انكفأت على المنخل تنقى الارز من الطوب الصغير .

- ٣ -

جاء الرجل بفأسه ، رمى جلبابه على الفرن ، وعقد ذيل القميص ثم تفل فى كفيه ، ضرب الارض ضربات قوية ، وأسماء على كتف أبيها ترقب الرجل مستمتعة بمشاهدة جديدة ، رمى من الحفرة فردة نعل قديم ، وسكينة صدئة ، قلبها بين يديه ، قال : خسارة .

وركنها بجوار الجلباب ، ثم جلب الطوب الاحمر فى مقطف ، صفه الرجل فى الحفرة ، ورش عليه الرمل ، ثم صفق بيده : هاتوا البنت .

أقبلت بها الداية ، تحملها بين يديها ، ملفوفة فى كفنها ، صغيرة بطول ذراع ، العمات من خلفها لا يدرين أيحزن أم يفرحن ، الحق أن العمات ناقشن الامر فيما بينهن ، وتوصلن الى أن الميتة لا تستحق الحزن فهن لم يعاشرنها ثم أن موتها رحمة من الله ، فالام المسكينة لا تقدر على خدمة طفلتين وأسماء طيلة أيام الحمل ضعيفة هزيلة ، وان شاء الله ستفيق وتسمن بعد رحيل الاخرى .

وقف الجميع حول الحفرة الصغيرة ، ونطقت واحدة فجأة كأنها نسيت أمرا .

ـ حنسمى البنت ايه ؟ سـأل الاب : لازم ؟ قال الرجل : لازم .

ردت الداية سـاخطة : ولا نسمى ولا حاجـة ، واحنا حنلحدها .

قال الرجـل المؤمن الحريص على قدسية الموت : لازم نسميها .. ونقوم بالواجب .

قال الاب : نعمل اللى علينا . قالت الداية : نسميها المنسية .

وارتاح الجميع للتسمية ، ومد الرجل يده الى اللفـة بحرص ، ورقد على ساقه ، وحطها بأمان جهـة القبلة ، قرات العمات الفاتحة ، ثم استدار الرجل ليهيل التراب من كل جانب ، فهرعت العمات الى الداخل يصحن وينفضن جلابيبهن من الغبـار ، وظل الاب واقفـا بينما أسماء متشبثة به ناسية العالم من حولها .

بقعـــــة دم

صممت على الرجوع بعد ما سمعت بنزول الجيش الى الشوارع ، وبعد ما وقع تحت قدمى شـــاب غرق الدم قميصـــه الابيض ، رفعته مع الاولاد على الاكتاف، وسرنا صائحين فى الشـــــارع ، فبرزت وجـــوه من الشرفات ، والنســـوة رحن يشلشلن بأيديهن ويصـــــوتن ويلطمن الخدود ، لمــا تهــدلت يداه ، وسكت جسمه الذى كان يرفرف ، مددناه على جنب فوق الرصيف .

لاول مرة فى حياتى أرى انســــانا مقتولا ، بحثت عن صاحبى الذى أسكن معه ، فلم أجــده ، وفى الشــــارع حين

كنت عائدا رايت جماعة ملتفة حول مذياع يقـــول نسرة سألتهم : فيه ايه ؟ قالوا : فرضوا حظر التجول .

وسرت بشعرى المنكوش واضعا عصاى تحت ابطى ، أدوس الاسفلت متعبا وأشـــد جزعى بالعافية ، نظـــرت الى حذائى ، فوجدت أصابع القـــدم بارزة منه . وفى الشارع الجانبى المفتوح على الميدان رايت عربة جيش كبيرة نائمـــة على جنبها ، والنــــار تنهش فى العجل ، ورائحة الكاوتش المحروق تملأ المكان . وكان الميدان فارغا الا من العســـكر المرتدين المعاطف السوداء ، كانوا يضربون بعصيهم كل من يحاول المرور ، ورأيت الطوب مبعثرا فى كل مكان ، واعلانات النيون البيضاء ، مهشمة وزجاجهــــا متجمع اســــفل العواميد .

ركنت العصا بحـــذر جنب باب دكان مقفل ، وسرت كانى لا أراهم ، وأسرع عسكرى نحــــوى وخبطنى على فخذى ، وقال : ارجع . قلت له : أنا مروح . قال لى أدخل من الشارع التانى .

كانت الحارة زحمة بوجوه تتوقع الشر ، والنــــاس يتحدثون بصـــوت عال ، وعلى المقاهى تجمعوا ينصـــتون الى المذياع ، وكل واحد منهم ينسج من خياله حكاية .

دخلت شارعنا ، فوجدت ابراهيم الجزمجى واقفــــا أمام جمـــاعة كبيرة يحكى لهم بكل أعصابه ما رآه عنــــد قصر العينى ، انتبهوا الى ، ومن مظهرى عرفوا انى كنت هنـــاك ، وصاحوا فى صوت واحد : هيه .. هيه .

وساروا ورائى يصفقون ، ورأيتها فى الشرفة واقفة تعض أصابعها بقلق ، لمـــا رأتنى اختفت لتفتح الباب .

قلت لنفسى : حتسألنى عن جوزها .

هى زوجة صاحبى الذى تركتـــه هنـــاك ، لا أمى ولا أختى لتقلق من أجلى ، ثم اننا متخاصمين منذ يومين ، هى تعمل موظفة ، وأنا وزوجها ما زلنـــا طلبة ، ودائمـــا تعيرنا ، وتقول : ما انتوش فالحين ، ودائما تتشاجر معه ، وتترك له الشقة، وترمى له ابنـــه الرضيع ، وتذهب الى البلد تشـــكوه لأهله ، وأيام تبدى لى الكراهية ، وتحث زوجها ليطردنى ، وأيام تصـــير كما قطعة الحرير .

على السلم وجدتها بانتظارى ، وكنت مجهدا وكأنى أرفع حمـــلا ثقيلا أخذتنى من يدى ، شعرت بالراحة تسرى فى عروقى ووقفت فى الصالة راكنـــا ظهرى على الحـــائط وهى تمسح وجهى بالفوطة ، وقالت : كده ما ينفعش ، انت تقلع هدومك عشان تتشطف . قلت لها : مقدرش لانى مضروب بالرش فى ضهرى . فأخذتنى الى حجـــرتى ، ووقفت خلفى تشد جاكتتى الكاروهات وأنا مستسلم لهـــا تماما ، وصرخت : فيه بقعـــة دم على أكتافك . قلت لهـــا : شلنا واحد اتقتل برصاصة .

وبدأت تفك أزرار قميصى بأصابع خائفة ، وقالت : ناقص البنطلون ، إبتسمت وقلت لها : لا .. أنا حاقدر . لكنها لم تخـــرج من الحجـــرة لتغلق من خلفها البـــاب كالعادة ، وتجرأت أنا فسحبت البنطلون بيد واحدة ، فالاحرى كانت تسند على الحائط ،وهى كانت جالسة امامى على حافة

السرير ، لا اشعر بالخجل ، ولا هى أيضـــا تبدو ـجنى ، وسحبت من يدى البيجامة وبدأت تلبسنى ، وتمددت على السرير مهدما ، بعـــد فترة وجدتها قد أعدت الطعـــام على الترابيزة ، وتحت السرير وضعت اناء به ماء ساخن ، وضعت فيها قدمى ، وجلست أمامى تدلكها ، وكنت مخدرا من التعب وسألت نفسى مندهشا : معقول ؟

رفعت وجهها بأطراف أصابعى ، ونظرت الى عينيها المغمضتين ، وقلت لها : أنت عظيمـــــة . قالت : مصطفى من ساعة ما نزل ما رجعش . قلت أطمئنها : ما تخافيش عليـــه .

وبعد ما أكلنا وشربنا الشـــاى ، جلست على السرير فى مواجهتى ترضع ابنهـــا الذى كان ملتفـــا بأقماطه ، وبعد ما التـــأم جسمى واســـــتراح ، بدأت أحكى لهـــا كل ما رأيت .

مكان للنـــــوم

قال لى صاحبى ساكن المدينـــــة :
اســـأل لك عم أحمـــد بتاع الشـــاى .
وتركنا الميدان المزدحم بالناس والعـــربات
ودخلنا شـــارعا على ناصيته بائع الكفتة
الواقف وراء الاسياخ يهب بمروحتـــــه
على النار ، فيملأ الحى بالدخان ، وكان
عم أحمـــد على الطرف الآخر واقفـــــا
على طوبة كبيرة يكبس وابور الجـــــاز
الذى سود بدخانه كلمة مكتوبة بخط غليظ
فوق الكشك .

قلنا : سلام عليكم .

والتفت بوجهه البشوش الاسمر ،
ثم نزل عن الطوبة يمسح يده بكهنة قديمة:

نهـــاره أبيض . وسلم على صاحبى بحرارة وود ، ومسح لنا الكرويتة المركونة تحت حائط الجـــامع ، لمـــا شمت أنفى الرائحة الكريهة ، تلفت حولى ، رأيت الشبابيك الصـــفيرة المنسوج عليها عنكبوت قديم ، والجدار الراشح حتى نصفه ، عرفت أننا نقعد أمام حائط الميضة .

وقال عم أحمد : وشك والا القمر .

ورد صاحبى : مشاغل يا عم أحمد .

وطلع على الطوبة ، غرف من البستلة كوز ماء ، دلقه فى البراد ، وكبس الوابور مرة أخـــــرى ، ورحت تأمل الشارع ، والبنات الجميلات ،والعيال الذين يعفرون المكان بلعب الكرة ، والميدان خارج الشـــارع يهـــدر بالعـــربات والزمامير ، وبدت زاوية كبيرة من مئذنة الجامع المطل على الميدان .

قال صاحبى : الاستاذ كان زميلى فى الجامعة .

بص لى عم أحمد وقال : يا مرحبـــــــا .

وقال صاحبى : من الشرقية .

صب الشاى فى كوبين ، ومسحهما بالكهنة ، ولما ناولنى الكوب قال لى : أجدع ناس .

وتكلم صاحبى فى الموضوع ، وعرفه بأننى أبحث عن غرفة أقضى فيها مدة التجنيـــد ،وعرفه بأننى سكنت بالحى

وراء الجامع الكبير ، وتركت السكن حين أنهيت الدراسة والآن أنا محتاج لغرفة ، وبالغ صاحبى فى الموضوع ، وقال اننى ابن ناس ومن الاعيان فى بلادنا ، ولا أدرى ان كان الرجل اقتنع بى أم لا ، لانه سكت حتى رجع من دكان العجلاتى الذى يركن دراجاته على الرصيف المقابل ، أحضر أكوابا فارغة ، رجها فى ماءا لدلو ، وقال لصاحبى : بس خليل هو اللى يعرف الحاجات دى .

وسأله صاحبى : وفين خليل دلوقت ؟

قال : تلاقيه فى الجامع .

وصحبنا لندخل من باب الميضة ، ورأيت الرجال يقعدون على الحصير وآخرين يقفون للصلاة ، ورجالا يتوضأون فوقا سمنت الميضة ، وصاح عم أحمد بصوت تردد صداه فى الجامع : يا خليل .

وسمعنا خليل يرد من المراحيض : أيوه يا أحمد . قال له : ناس هنا عايزينك . وخرج من الباب الذى انسحبت من فتحته جاكتة رمادى ، كان يضع على رأسه طاقية من القماش الابيض ووجهه أصفر بلون الكركم ، وكانت أصابعه تقطر الماء على البلاط المتسخ .

رآنا فاتجه الينا يخبط فى الارض بقبقاب خشب مبلول ، سلمنا عليه من وسط ذراعه وقال بصوته الناعم مخفضا وجهه على الارض : أهلا يا أساتذة . وقال عم أحمد بعد ما أشار الى : الاستاذ غريب وعايز تدور له على أوضه . أدخل ذراعه فى الجاكتة ، ولما اراد أن يدخل

الذراع الآخر تاه منه ، دار حول نفسه ، ضبط الجاكتة على أكتافه ، ثم أخرج منديلا كبيرا مكرمشا ليمسح به يده ، جفف وجهه وقفاه ،و تركه هناك تحت الياقة وقال : أنا خدام .. بس المشوار بجنيه . قلت : مفيش مانع . قال : عندى أوضة نشوفها ونرجع قبل آذان العصر .

وسرنا فى الشارع الطويل ، فوق شريط الترام الذى يلمع فى ضوء الشمس ، وصلنا مقام الشيخ المدهون بلون أصفر، وبخطوط بنية عريضة ، وقف خليل على شباكه ، وفرد كفيه وقرأ الفاتحة ، ووقفت خلفه مع صاحبى ، ورأيت الشاهد المكسو بالحرير الاخضر تنتصب حوله شموع طويلة ، ورأيت برايز الفضة المتناثرة فوق ظهره وعلى رأسه الكبير الملفوفة بعمة حمراء .

ودخلنا الشارع الضيق بالبيوت الصغيرة ، كان بداخلها نسوة قاعدات ، وعلى بلكوناتها الخشب المتشابكة غسيل يقطر الماء على الماشيين ، وخرجنا الى الوسعاية ، وسطها شاهد وحيد عليه لوحة رخام وكتابة سوداء ونجاج ينبش جريدة ناشفة ، كانت الوسعاية مرشوشة بالماء ، وهناك على المصطبة رجال يدخنون الجوزة ، وولد نحيف بشعر منكوش ، كان يرص لهم الحجارة ، ويملأ الصفيحة الصدئة بالحجارة الفارغة ،وبعيدا عنهم نام الرجل العجوز الذى يركن عصاه ومدد ساقيه المربوطتين بقماشة ، كانت المعزة تنسل فيها ، وهو لا يشعر تاركا نفسه للشمس المتسلطة على جسمه المخدر ، والى جواره فتاة تغسل مواعين ، ثوبها مسحوب عن فخدها الابيض وقطعة كبيرة من سروالها تبدو على ناحيته ،

لم أستطع أن أرفع عينى حتى طلعت المراة السمينة المرتدية الجلباب الملون من الحجرة المظلمة ، كانت تربط رقبتهـــا بمنديل ،وعلى راسها اشارب أحمر يتدلى منه الترتر وخصلات من شعرها الاكرت وحلق كبير يهتز على وجهها القمحى ، لمـــا رأتنـــا مسحت يدها وركنت ظهرها على البـــاب ، اقترب خليل منها ، ووقفنا على جنب ، ضربته على أكتافه وقالت : يا واد سايب الجامع وبتلف ؟ قال لها وهو ينظـــر الى الارض : أكل العيش يا أم وردة ، ومال على أذنهـــا وكلمها بصوت واطىء ، دفعتـــه بيدها الكبيرة ، وقالت : ابعـــد يا منيـــل ، وبص الينا بخجل ، ثم مال بوجهـــه الى الارض ... وتركته واقفا مكانه ، واتجهت الينـــا ولمحت صدرها الممتلىء ، كان يطفح علىا لفتحة البيـــاض المحدد بوساخة وسواد ، وسألت : مين اللى عايز يسكن ؟ قلت لها : أنا . قالت : لو قربت شـــوية كان عندى أوضـــة خدها أفندى زى حالاتك . قال صاحبى : معهلش .. مفيش نصيب . قالت : خليـــل يعرف واحـــد تانى ياخـــدكم عليـــه .

شد خليل المنديل من خلف القفـــا ، ومسح به وجهه ، وقال : أنا واخدهم على عبده . ودخلنا الشـــارع الضـــيق الممتد من الوسعاية ، مررنا على شـــواهد كثيرة مصفوفة بطول الشارع ، وانشغلت بقراءة الاسماء المكتوبة وتواريخ الموت ، وشـــعرت بكآبة ووحشـــة ، وظلت عالقـــة بذهنى آية :

« يا ايتها النفس المطمئنة »

المكتوبة على كل رخامة ، ولمـــا خرجنا الى النور فرحت بالزحمـــة والناس الذين يسعون فى كل ناحيـــــة ، وماتت الوحشة داخلى ، عبرنا الشارع ومشينا فى ظل العمـــارات وقلت لصاحبى : نشرب عصير .

وقفنا على باب الدكان ، وانتعشت بالرطوبة التى تهل علينا من الداخل ، بسمل خليل حين مد يده الى الكوب فوق المشمع المبلول ، شربه مرة واحدة ، وعلقت على أنفـــــه رغاوى مسحها بمنديله ، ثم أعاده الى قفاه .

وكان منكفئا على الرصيف وراء العـــدة ، صـــندوقه مرقع بمائة خشبة ، عليه الحديدة المثنيـــة كأنها قدم مقلوبه والى جواره كيس قديم مدلوق منه أحـــذية وشباشب حريمى وصنادل عيال ، قال خليل : خلى عنه .

حط كفـــه على جبهته وضيق عينيه ، واستمر مدة حتى سحب المسامير من فمـــه الفارغ من الاسنان وقال : عايز ايه يا خليـــل ؟ قال له : ازيك يا عم عبده . لم يرد عليـــــه ، انشغل بدق مسمار فى حذاء معلق على الحديدة المثنيـــه ، وانحنى عليه خليـــل وأحاط كتفه بذراعه ، وهمس اليـــه بصوت منخفض بعدها التفت اليه الرجل ، وضيق عينيـــه وكان وجهه الجاف بأصداغ ممصوصة له شـــارب علبـــه صفرة الدخان ، كانت تلمع فوقه قطرات ماء ، وســـــأل : مين اللى عايز الاوضة ؟

اقتربت منه ، وربت بيدى على صدرى ، وقلت : أنا . سألنى : بتشـــــتغل ايه ؟ قلت له : لسه متخرج ور بح الجيش .

قال : الاوضة اللى عندى مقدم ميتين ، وايجـارها خمستاشر . وسأله صاحبى . فين هى ؟ مسح شاربه بظاهر الكف ورشف من شاى الكوب المركون تحت قدمه ، وقال : شارعين بعد الشارع اللى قدامك . قال خليل : فوق السطح ، مستقلة بنفسها ، وبحمام جواها . قلت : نشوفها .

رفعا لرجل اصبعه أمام وجهه وقال : خمسة جنيـه قبل ما أقوم . نظرت الى صاحبى بخيبة أمل ، وقلت له : بينا نرجع مفيش فايدة ، وقال خليـل : بعد العصر أشوف لك مكان تانى .

وعدنا لنقعـد على الكرويتة تحت حائط الميضـة ، وعم أحمـد قدم لنا كوبين من الشاى الثقيل ، وكلمنى : يا ابنى أنا حسألك .

وسمعنا صوت خليـل من الداخل يؤذن العصر ، كان صوته رخـ ليس بصوت الرجل الناضج ، ومال صـاحبى على أذنى وقال : سامع صوت خليل ؟ قلت له : سامعه . وضحك وقال لعم أحمـد : الظاهر خليل فيه لله . نتر ذراعه وصعد على الطوبة وضحك ضحكة كبيرة أظهرت سـنتين صفراويتين بينهما فراغ وقال : ربنا يسهل لخلقه .

وبدأت الشمس تختفى وراء مئـذنة جامع الميدان ، ورمت ظلا طويلا دخل علينـا الحـارة وأمسـك عم أحمد الدلو ونثر ماءه على الارض ، وارتفع صـوت مذياع بائع الكفتة ، وفجأة رأيت « فهمى » يدخل الشـارع ، يحمـل كتابين تحت ابطه ، وحقيبته بيده ، مر من أمامنا ولم يرنى ، فنهضت لأنادى عليه : فهمى . نظر الى بدهشـة ، وقال : مش معقول .

ركن الكتـــابين على الكرويتة ، وارتمى فى حضنى ، قبلنى ، وارتاح دمى فى عروقى ، ونسيت هم المشـــاوير ، أخـــذته من يده ،و كان عم أحمـــد واقفا على الطـــوبة يبص علينـــا ، قلت له : اعمل شاى مضبوط . قال : على عينى ، وسألنى فهمى : بتعمل ايه هنـــا ؟ قلت له ويده لم تزل نائمة فى كفى : انت اللى بتعمل ايه ؟ قال : أنا ساكن هنا ورا الجامع .

قلت له : أنا أعرف أنك كنت فى الجيزة . قال ى : ماخلتش مكان ، وكنت نسيت أعرفه على صاحبى ، قام مرة أخرى وسلم عليه ، وقال له : لا مؤاخذة . وقلت لصاحبى : فهمى زميل كلية بس قبلينا بدفعتين . وقال صاحبى : شفته كتير فى الجامعة لمـــا كان يخطب . تنهد فهمى وقال : أيام ما تتعوضش .

وقصصت عليه الحكاية ،و كيف أننا من الصبح نبحث عن حجـــرة ، وعاتبنى لانى لم أذهب اليـــــه ، وقلت له : أنا ما أعرفش . وقال لى أن حجرته تحت أمرى ، لأعيش فيها كما أريد ، وقمنـــا فى التو ، وتركنـــا خليل ــ الذى أنهى صلاته ــ قاعدا على الكرويتة ينتظر أن أطلب له شايا ، واعتذر صاحبى وقال : معلهش ما أقدرش أطلع معــــاكم عندى مشوار . وأشـــار فهمى الى البيت وقال له : لما نحب تزورنا تطلع السلم لغاية ما سقف السما يخبط دماغك ، تبص يمينك تلاقى أوضتى .

وضحكنا ثم سلم علينا وخرج الى الميدان ، ودخلنـــــا الشارع الآخر لنتجه الى البيت المجاور للجامع .

كان بابه ضخما كباب الوسية ، وبعد ما عبرنا طرقة مظلمة ، دخلنـــا فى حوش واسع مفتوحة عليه أبواب ونوافذ بدت منها دوائر سرير وكنب مفروش وتليفزيونات أمامهـــا ناس يتفرجون ، دسنا الزبالة المبعثرة على أول الســلم ، وهش فهمى القطط الملمومة عليها ، وصعدنا سلما ضـــيقا ومظلما درجاته متآكلة من وسطها وكأن جيشا غازيا قد مر عليها ، على السطح ، كان النـــور الخفيف ما يزال يعم الدنيـــا ، وصارت ضجة الميدان بعيدة ... والســيارات ظهرت أمامنا من فتحة السور ، وأشار فهمى وقال : هى دى أوضتى .

سألته : لوحدك ؟ قال : معى صديق من البلد وهو دلوقت فى أجازة . وأخرج مفتاحا صغيرا ، أدخله فى القفل المعلق على الرزة ، وشـــعرت أن الباب ضعيف لا يحمى شيئا داخله ، والحجرة مبنيـــة بألواح خشب ومسقوفة بخوص ويتراكم على سطحها كراتين وأقفاص ، ومن ناحية برزت مدخنة الحاتى الذى يفتح على الميدان تعفر السطح برائحة تغيظ .

فى الصالة الصغيرة المعتمة رايت وابور الجاز يتنـــاثر حوله عيدان الكبريت واوانى قعرها مسودا ومركونة عليها أغطيتها وترابيزة خضراء عليها أطباق بلاستيك ، دفع فهمى باب الحجرة برجله ، فاهتزت الجدران وانهـــال على رأسى تراب من السطح ، وكان بها سرير مراتبه غاطســـة الى الداخلوسرير اخر عليهالواحخسب مصفوفعليها كتبوالحذاء كان باديا أسفل الالواح ، وكنبة فراشها ممزق ، صعد فهمى عليها ورفع ترباس النافذة ، وظهر النـــور مرة أخـــرى ،

وسمعنا ضجة الميدان دائرة كطاحونة قعدت على الكنبه ، وقرأت كلمة مكتوبة بطباشير على الحائط جهـة البـاب وابتسمت ، وتأملنى فهمى ثم نظر الى الكلمة المكتوبة وقال : عشان ما أنساش . وعدت بالذاكرة لايام الدراسة ، ورأيت فى ضبابها فهمى عند سلم القـاعة فوق كتف الزميل جامعا كفيه على فمه ، وعروق رقبته كانت منفوخة عن آخـرها وهو متفعل ومتوتر والطلبة يسمعون ويتناقشون وأنا بينهم مشغول بجراءته ، ولم أك أفهم الكثـير من كلامه ، وكنت أسائل نفسى : معقـول ؟ طالب نحيل لابس قميص الوانه باهتة وجزمته نعلها متآكل عنده الجـرأة يهاجم الحكومة برئيسها ؟

وكان كلامه يسرى فى دمى ، وكنت أحس أن عقـلى يطقطق ، ينهض من ركدته ليتمطى ويصحصح ، واقـول لنفسى : دا انا جاى من البلد جاهل . وكنت حين اتخيـل نفسى مكان فهمى ، أرتعش ، وتنهار سـاقى من تحتى ، واقول : خليك هنا أحسن .. انت مش فاهم .

كنت أتمنى لو يصير صديقا لى ، لمـا عرفته وجـدته طيبا وابن حلال وصاحب صاحبه .

خلع فهمى قميصه ، وفرده على السلك المربوط وسط الحجـرة وقال لى : قم اغسـل وشـك . قلت له : فين ؟ أخرج يده من الباب وقال : هناك فيه زير وحنفية .

ولمـا رجعت وجدته يخرج لفات من حقيبته ، فردها على الجريدة ، وشـد « حلة » من تحت السرير بهـا

خبز ، وقعدنا لناكل وكلمنى ، وحكى حكايتهم حين أتوا هنا للقبض عليه ، ستة ضباط أصغرهم بدبورتين ، حاصروا السطح وامروا مخبرين بالوقوف على كل شباك والضابط الكبير دفع الباب برجله ، ولم يجد غير صديقه الذى يشاركه الحجرة غاطسا فى قعر السرير مستغرقا فى سابع نومة ، وسأله : زميلك فين ؟ قال له : مسافر . فتحوا الحقائب وأكياس المراتب ، وكسروا دولاب الخشب ، أخذوا الكتب ، وحين وجدوا صورة لامرأة عارية ، تفلوا فى الهواء، وقالوا : وكمان له فى النسوان . وقطعوها ، ودسها واحد منهم فى عب صديق فهمى ، ولما تمرد على ذلك ، ضربوه على أصداغه ، وربطوا عينيه بمنديل ، وسحبوه معهم ، وهناك ارادوا اجباره على الكلام ، وفى النهاية ضغطوا عليه ليوقع على ورقة ، وقالوا له : دا اقرار لما تعرف عنه حاجة تبلغنا .

.

وقص على حكايات أخرى ،و شربنا الشاى مرتين ، ودخنا سجائر علبته السوبر ، ثم مددنا فى قعر السرير ، وفتح كتابا وقرأ لى ، وأنا أسمع حتى سقطت فى النوم .

عبـــاءة الليـــل

كنت أنا وهى والليـــل فى مدينـــة كبيرة نائمـــة ، بعد أن فارقنـــا الصديق سكران بخمر حانتين ، وقف يودعنـــا ليلحق بآخر قطـــار ، ولم يدعنا معـــه ، فهو يسكن الغرفة الضيقة التى لا تتســـع الا له ولزوجته وبنتيه .

قلنا لليل : يا ليل هل تأوينا ؟

قال الليل : أنا أكتم سر العشـــاق والسراق ، وأستر فرشـــة الزوجين ، وأدارى نومة الفقير .

قلنا : فنحن عاشـــقان غريبان ، ليست هذه مدينتنا ، غادرنا بلدنا لانهـــا تترصد للمحبين وتفضح سر القلوب .

قال : شقا طريقكما وانا معكما اسمع وارى .

وكان طريقنا طويلا وبعيدا ، قلت : آخذها الى غرفتى التى منحها لى صديق .. ولاجرب معهـــا الحب ، ولأكون مثل كل الاحبة ، الذين قرات عنهم ، ورايتهم على الشاشة يتأبطون الأذرع منطلقين فى خفـــة يرمى الهواء شعرهما الى الوراء ، وحولهما تطير النسمة المغـــردة، وينمو الزهـــــر المبتسم ، وتزقزق لهم بلابل لا تراها العين ، وخفت لأن صديقى حين أسكننى قال : لا تصحب الى غرفتك امرأه ، فأنا أخاف الناس ، ولا تأتى آخر الليل سكران ، فأنا لا أحب الخمر التى حرمها الله .

تمنيت لو أجـــد البوابة الحديد مفتوحة ، سنمرق منها خفيـــة ، وأدير فى ثقب الباب مفتاحى الكتوم ولا أشـــــعل مصباحا ففى الظلمة سأرى على نور وجههـــــا ، ولا رفع صوتا ، فيكفينا همس القلوب .

هناك وجدت المصباح يرش على البوابة نوره المتشنث كبرص ، وسقطت خيالاتنا على قضبان الحـــــديد المربوطة بالسلسلة الغليظة ، نظرت الى أعلى ، ولم أقدر أن أرفـــع صوتى لأنادى عليه ، وغاظنى انغلاق نافذتى القريبة ، نظرت الى وجهها الشارد وقلت : لا تحزنى .

ـــ طالما انا معك لا يهم .

والليل كان قابعـــــا هناك فى الارض الخـــلاء ، يكتم ضحكة قلت : يا ليل .

قال : أنا لا أغلق البوابات ، فأرضى رحبـــة ، ويدى بعرض السماء .

قلنا : ولكننا نريد جدارا وفراشا .
قال : انا لا املك غير عباءتى السوداء .
قلت لها : فلنذهب الى صديق قريب من هنـــــا ، ينام النهار ويسهر الليل .
قالت : كيف ننام عند غريب ؟
احطتهـــــا بذراعى ، وقلت : لا تبالى .. فقلبـــــه مفتوح .

كان النور يخـــــرج مع الموسيقى من شيش نافذته المغلق ، مددت يدى على آخرها ، وخبطت طرف النافذة ، فارتجفت الضلفتان ، وتردد صوت الطرقات كأنها فى فراغ ، وكانت هى واقفة عند البوابة ترقب الباب من الداخـــــل ، خبطت مرة أخرى ، وناديته باسمه ، وفى المرة الثالثة انطفأ النور ، وخفت صوت الموسيقى ، وانتظرنا ، فلم يخـــــرج أحـــد ، قالت : لا فائدة .

وعدنا نعبر بقع المـــاء بين البيوت المغلقة الابواب ، كانت فى الصمت وفى الضـــــوء القليـــل شبيهة بشـــواهد القبور ، وألف عين من وراء النوافذ ترقبنا ، وتحبس ضحكات متشفية .

والليل العجوز يسير خلفنا يخب فى عباءته ، كنـــــا نسبقه بمسافة ، وهو على آخـــر ظلنا المتعرج مجتهـــــدا فى مشيه يحاول اللحاق بنا ، يرفع العباءة المهترئة من حين لآخـــر ويلقيها على كتفه فتلم بعثرة لحيته الرمادية .

على أول الشارع الكبير كانت السيارات المجنـــــونة تمرق مسرعة ، سرنا على الرصيف فرحين بالنور الغامر ، وان كان قد جمع باصـــــفراره قليلا من الوحشة فى جانب القلب . خرج علينا الشرطى فجأة من وراء ســـــور تنتشر

عليه الاشـجار المتشابكة ظلمة قاتمـة كان وجهه مشدوداً ، وأسنانه سوداء بل كل لباسه كان أسود ، البيريه والسترة والسروال والنعـل ، تقـدم نحونا ، فكدنا نرجع بظهورنا فارين . حمامتان سقطتا بغفلة على خيال مآتة ، وكانتا تمنيـان نفسيهما بحب وفير فى أرض خصيبة .

قلنا : نحن أخوان ذاهبان الى قريب يحتضر .

ونظر خلفنا فرأى الشبح الكهـل ، فتراجع وقال : لا تفعلاها مرة أخرى .. فان الدولة تدفع لى راتبى من اجل أن أمنع أمثالكما من السير اثناء الليل .

وانطلقنا ، فى البدء سرنا بجوار السور متلاصـقين نخاف من انقضاض اليـد على أقفيتنا وبعد أن سرنا مسافة معقـولة ، مشينا متحررين ، ولكننا لم نتكلم ، فقط نظـرنا الى الوراء لنطمئن ، فواجهتنا الابتسامة فى الوجه العجوز ، والفم المفتوح كطاقة مقبرة مهجورة .

فى المقهى المفتوحة على الميدان الواسع والتى تظـل ساهرة طول الليل جلسنا على منضـدة ، طلبنـا قهـوة تعين على السهر ، وتقاوم النوم الذى بدأ يتسرب ، امسكت بكفهـا البـاردة وقلت : أنا آسف . قالت مبتسمة : أنا سعيدة .

قلت : كنت أود أن .. قالت : وأنا ..

ولا ادرى ان كانت عرفت مقصدى ، فأنا كنت أمنى نفسى بليلة ينفتح فيها القلب ويقول لها كل ما طواه تحت لسـانه المتلعثم ، وكنت اريد أن أقول لها كلام العشـاق المعتاد ، لقد أحببتك من أول نظرة ، جرحتنى عيونك ، وحين عرفتك قلت هى الفتاة الممنوحة لى من السماء ، سـادفن أحلامى فى صدرك وأطوى فى صدرى أحلامك ، واننى أرى

فى عينيــك مدينتى البهيجة بأضوائها وطيرها المحلق فى سماء لا تعرف الغيم ولا تعــرف المطر صحو مقيم وابدى وشمس رحيمة لا تغرب .

وفى اللحظة التى أردت نأمل عينيها لا تشجع وأقول ، رأيته على المنضـــدة البعيدة قابعا تحت مصباحها لذى ينز ضــوءا بلون الســل ، كان يهــرش جنبــه بيـــد مقشوطة الجلد ، ويبدو كأنه مشغول عنا ، تم رفع لى عينه فجأة ، فارتد بصرى ، وماتت الكلمات فى حلقى .

وكنت أريد أن أقول له : لم نعــــد بحاجة اليك .. فنحن فى ونس الناس والمصابيح ، ولكنه واصـــل الهرش ، وواصـــل بحلقته كمن يقول : لقد استغنتما بى وانا لا أتخلى بسهولة .

قالت : القهوة لم تفعل شيئا والنوم غلبنى .

قلت . اقتربى منى ونامى على كتفى .

ارتاح رأسها على كتفى ، واملت براسى ، وجعلت الخــد على الخــد ، ويدها كانت تحت المنضده فى يدى ، قلت فى أذنها : أحبك .

وحركت شفتيها بخـــدر هو مزيج من خـــدر النـــوم والحب الهادىء ، وكانها تردد كلمتى وغفونا ، كان نوما جميلا خاليا من الاحـــلام والكوابيس ، قامت تفرك عينيها وترجع شعرها الى الوراء ،و أنا بربشت بجفونى وهالنى أن النهار كان يحبو فى الميدان يحاول أن يشب على الجدران العالية ، ولمـــا نظرت الى المنضده البعيده وجدتها فارغه ، والكرسى كان مائلا على طرفها ، ولكننا لم نسمع تشقشقه العصافير ، فقط راينا صحوه مدينه كبيره ، تدور فى شوارعها سيارات مضببه الزجاج . وعربات تجـــرها الخيل ، عليها أقفاص الفاكهة والخضار ، وجنود يجرون حول اســـطوانة الميدان ، وكان صــــوت أحذيتهم الثقيـــــلة ، يسمع من موضعنا ..

الفهرس

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٠٧

رقم الإيداع بدار الكتب ١٤٦٧٢ / ٢٠٠٠

I.S.B.N 977 - 01 - 6926 - 9





هذا هو العام السابع من عمر «مكتبة الأسرة» .. ومنذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام. واستجبنا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيمانًا منا بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها؛ فى إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبة الأسرة» .. أن تعيد الروح إلى الكتاب مصدرًا هامًا وخالدًا للثقافة فى زمن الإبهارات التكنولوچية المعاصرة.. وها نحن نحتفل ببدء العام السابع من عُمر هذه المكتبة التى أصدرت (١٧٠٠) عنوانًا فى أكثر من «٣٠ مليون نسخة» تحتضنها الأسرة المصرية فى عيونها وعقولها زادًا وتراثًا لايبلى من أجل حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك





١٥٠
قرش